مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

روائع الأدب العربى
(الأعمال الفكرية)

سلامة موسى

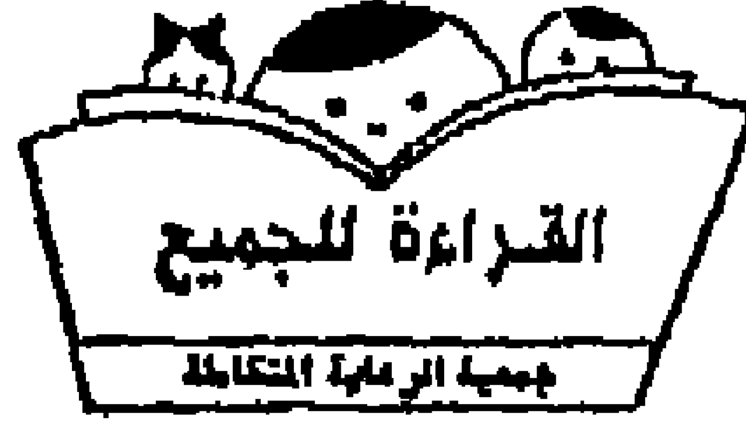
هؤلاء علمونى



هـؤلاء علمـونى

هؤلاء علمونى

سلامة موسى



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العربي)

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

مقدمه

المؤلف الذى نحبه ليس فقط صديقاً نأتنس بآرائه ونستفيد بأفكاره. إذ هو أكثر من ذلك.

هو، بهذه الآراء والأفكار، يتسلل إلى قلوبنا وعقولنا فيؤثر فى شخصيتنا أو يغيرها . وهو، بهذه المثابة، عامل نفسى فسيولوجى له دورة حيوية فى وجودنا .

ولكن المؤلف العظيم، ليس هو الذى يجعلنا نرى الدنيا بعينيه ونشهد على الناس والأشياء بضميره. وإنما هو الذى يعلمنا الاستقلال رائين ومشاهدين معا . وإن يكن فى رؤيته وشهادته قد فتح بصيرتنا .

إن كل إنسان كون فى نفسه. ولذلك له الحق فى أن يسأل فى إستقلال وأن يجيب فى إستقلال عما يحس وعما يجد. وهؤلاء المؤلفون الذين تخصصوا فى الرؤية والشهادة جديرون بأن نقرأهم. ولكن يجب أن نحذرهم. وهيهات أن نحذرهم.

ذلك لأن لكل كاتب ايحاءاته التى لا طاقة لنا بالتخلص منها. وأحياناً له إيعازاته التى تندس إلى عقولنا من حيث لا ندرى.

ولكن علينا فى كل حال أن ننشد الاستقلال.

وقد تأثرت بهؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب وأحببتهم وأعظمتهم ووجدت فيهم النور والتوجيه. ولكنى حاولت الاستقلال وهذا هو ما أنصح به للقارئ الذى يجب أن ينصت إلى قول أمير الأدب جيته يقول: كن رجلا ولا تتبع خطواتى.

سلامة موسى

المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل. أو هى خارطة نأخذ فى رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة. فنحن المسئولون عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة. ومع أننا نعرف من السيكلوجية الحديثة أن سلطة الأبوين، ووسط العائلة، وطراز المجتمع الذى نعيش فيه، وتراثنا البيولوجي، نعرف أن لكل هذا أثره فى تكويننا وتوجيهنا، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعا يخطط أو خارطة ترسم، هذا النظر يستحق الاعتبار ويجب أن تكون له مكانة فى الطاقة النفسية لكل إنسان. وإذا كانت «الوجودية» تجعل من الفرد، المسئول الأول عن أعماله، وتزعم أن هذا فلسفة فلا أقل من أن نسلم نحن بهذا الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ولكن إلى البناء الأخلاقى.

وحسن فى الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل. وفيما يلى بعض الخطوط التى أنقلها إلى القارئ الشاب من مشروع حياتى أو خارطتها. فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزبد الكثير.

بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلى. وكان يتعقبنى بالعذاب رجل نيوروزى جعلنى أبيت وأصبح فى كرب لايطاق.

ففررت إلى أوروبا وهناك انبسطت لى آفاق وحلمت أحلاما ورأيت رؤى. وشرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية واختلط بعناصر جديدة فى المجتمعات والعائلات وأقرأ من الكتب ما يشع النور فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى. فقررت من ذلك الوقت - وأنا حوالى العشرين - أن أكون متمدناً ومثقفاً. وقد مضى على نحو خمس وأربعين سنة وأنا أعانى الخصومات بسبب هذا القرار السرى.

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التى تتضح فى الانتخابات البرلمانية، ورأيت مشاكل الشعب تدرس فى البرلمان الذى له وحده حق تعيين الوزارات واسقاطها، ورأيت جرائد تعالة المذاهب وتناقش الساسة، ورأيت الاجتماعات التى يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم. ورأيت البيت النظيف، والشارع النظيف، والكتب العديدة، والمكتبات المجانية. واختلطت بكل ذلك وتحدثت إلى الفرنسيين والإنجليز، وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدنين وأهدف إلى أهدافهم وأدرس وأتعلم وأجول وأتأمل.

وعرفت، فوق ما عرفت، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حراً لا يختبئ من الدنيا وينظر إليها من صير القفل، ولكن يواجهها فى شجاعة، يتعلم ويعمل ويتحمل المسئوليات.

ورأيت جمالا فى الحب بين الشبان والفتيات. رأيت التمدن.

وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأتصل عقلى عن سبيلهما، بأكبر العقول القديمة والحديثة، وكثيراً ما كنت

أسهر الليل كله حتى الصباح، وأنا فى لذة الحماسة بقراءة كتاب لنيتشة أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقليين أعداء القرون المظلمة.

والتحقت بالجمعية الفابية، ورأيت برناردشو فى لحمه ودمه. وكانت هذه الجمعية تومئ فى بداية هذا القرن إلى منتصفه. وكانت دعوتها إلى الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة. وسمعت من منبرها رجالا ونساء من الإنجليز يقولون «يجب أن نخرج من مصر» فأحببت الإنجليز وكرهت الاستعمار.

ورأيت بين أعضائها رجالا ونساء يقبلون على الأدب الروسى ويدرسون المشاكل التى خلفها داروين، ويبحثون «تنازع البقاء» ومعانى «العنصرية» ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق، من تنازع أو تعاون.

ورشحت نظرية التطور إلى وجدانى وتشبعت بها، فصارت مزاجى وأسلوبى. وكبرت قيمة الأنسان فى نفسى، لأنى عرفت تاريخه الماضى فى مئات الملايين من السنين كما صرت أحس بتاريخه القادم فى المئات من ملايين السنين أيضا. وتحملت بهذه المعرفة مسئولية وأحسست ديناً. ولم ينقص من قيمة هذا الدين إننى وقفت على مئات الخرافات التى وقع فيها الإنسان. لا، بل أن هذه الخرافات قد زادتنى احتراماً وحبا للإنسان إذ هى كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق. فقد انتقل من السحر إلى العلم ومن النجامة إلى الفلكيات، ومن الكهانة إلى الضمير، ومن ذلة الرق إلى شرف الإنتاج.

وكان أكبر جزء فى «مشروع» حياتى إنى إحترفت الثقافة. فكانت حرفة وهواية معا، لا أبالى ما فيها من تعب وعرق. وقد بنيت بها

شخصيتي. وانضجت بها وجداني، واستطعت أن أنسلخ من عقائد الطفولة، وأن أصل إلى اليقين الجديد بهداية داروين وأينشتين. وأصبح عقلي عالميا عاما أحس صداقتي لنهرو وخصومتي لتشرشل، وأعني بدراسة الصحاري واحتمال زراعتها في آسيا وأفريقيا، وأفكر في مستقبل الأحياء. وأخشى انقراض بعضها. أجل. أحس أن العالم كله قد أصبح وطني ليس لي حق التفكير في مصالحه فقط بل عليّ هذا الواجب، وثقافتي لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية وأنما هي عالمية. هي في التاريخ وعلى مستوياته: قديمة ووسيطة وعصرية مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها.

ومع أن ثقافتي قد فصلت بيني وبين الكثير من الناس لاختلاف مستويينا، فإنها بسطت لي آفاقا شاسعة من الفرح والألم والتأمل والعبرة. فجعلت حياتي أكثر حيوية، وحبي للطبيعة أحم وأعمق، وفهمي للكون أو في وأنور.

وقد عرفت هذا الفرق بيني وبين سائر الناس حين وقفت أمام الدينصور قبل أربعة شهور في متحف التاريخ الطبيعي في باريس. فإني وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة. وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمي فقط لهذا الحيوان الذي كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة. وكان أكبر من الفيل يزيد عليه في الجرم نحو أربعة أضعاف. وكان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورنة. وكان يبيض مثلهما. وقد انقرض لأنه كان جسما بلا مخ أو بمخ صغير يفضله مخ البطة أو الكلب ألف مرة. فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حيلته فعجز ومات وانقرض.

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الدينصور. ثم فى ماضى النوع البشرى ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان. ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام، إلى أن يكون الشمبنزى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها.

ومع إنى احترفت الأدب والعلم والثقافة، فإن هذه جميعها هى عندى حياة وكفاح أكثر مما هى حرفة. ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة. ولكنى أبالى أسلوب الحياة. ولا أعبأ ببلاغة العبارة، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة بحيث نحيا متعمقين متوسعين. ومع أنى ألفت نحو خمسة وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عنيت بتأليفه هو حياتى، هذا المشروع، هذه الخارطة، التى رسمتها والتى أعود إليها من وقت لآخر بالمحو والتنقيح والتصحيح. بل أن الكتب التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول، من حياتى.

وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى. وإنما هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت. ألم أكن سمكة فى يوم ما؟ ألم أعش على الشجر فى وقت ما؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية، ولايزال بعض هذه الآثار واضحا، أراه بعينى إلى الآن كما أرى بعينى وأسمع بأذنى كلمات مصر الفرعونية وآثارها فى العقائد العامية بل الشعبية.

وكذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر فإنى أحمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموما شخصية لى. لأنى أدين بنظرة، كدت أقول عقيدة التطور. ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حرية

الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات والتقاليد المؤذية. إذ هم أعداء التطور.

ومن أجمل الأحساسات التي أستمتع بها في فترات اليأس. والتي تحيل هذا اليأس إلى رجاء، إن مؤلفاتي وأفكاري. ومنهجي وكفاحي، كل هذا لن يموت بعد موتي. إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ للنور.

وأنا بذلك أتجاوز حياتي. وأحي بعد موتي.

وقد قرأت أكثر من ألف كتاب. واخصبت الكتب حياتي، وجعلتني مثمرا مضيئا، ولكن الكتاب الأول الذي له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتي هو كتاب داروين «أصل الأنواع». فإنه زاد عمري من سبعين سنة إلى ألف مليون سنة، وجعلني أحس الوجدان ليس على هذه الأرض فقط، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته. وأحس أن للطبيعة أخلاقا.

هذا هو مشروع، خارطة حياتي فما هو شروعك. كيف رسمت، كيف ترسم، خارطة حياتك أيها القارئ؟

هناك زعم أو وهم يقول بأن الساسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات. وقراءتنا المتوالية للصحف تعمم هذا الزعم أو الوهم إذ أننا نجد الأسماء البارزة للساسة ونقرأ أخبار الحرب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيتأيد هذا الزعم أو الوهم.

وليس شك في أن الحروب والمعاهدات تغير، وقد غيرت، الجغرافية للسياسة للأقطار كما أنه ليس شك في أن المباشرين لهذه التغييرات

كانوا من السياسيين أو من العسكريين. ولكن هذه التغييرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية.

ومع ذلك عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون اخترعوا الآلات أو ابتكروا الأساليب أو ألفوا الكتب لاعلان نظريات جديدة.

اعتبر هاتين الحربين الكبريين الأخيرتين، فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب. ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها. لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى ١٧٧٦. ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير فى المصنوعات فاحتاج هذا الانتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار.

ومازلنا نحن فى حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التى أحدثت ولاتزال تحدث مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية.

والمعنى والدلالة هنا أن السياسى والعسكرى قد سار كلاهما فى أثر المفكر المخترع الذى انبعث إلى التفكير بقوات اجتماعية أخرى.

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار أى غيرت الجغرافية السياسية. ولكنها لم تغير الإتجاه البشرى أو الاتزان النفسى. فالأوروبى الآن هو الأوروبى الذى كان يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو طموحه أو تفكيره أو عاطفته.

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب. وعندنا على ذلك المثل الأكبر. فإن كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عينت لنشاطها اتجاها وأكسبتها

أهدافا لم تكن لتعرفها من قبل. وهذا الخلاف الخطير القائم الذى قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية هو نتيجة كتاب ألفه كارل ماركس. وهناك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل هذا الأثر أو ما يقاربه.

ولكن المؤلف المبتدع لا يبنى على الهواء أو يفكر فى الخواء. ذلك لأنه يعيش فى مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته. فإذا كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة فصار يمايز بينها ويختار أحسنها فيدفعها بتفكيره ويزيدها بيانا وقوة حتى تتغلب على غيرها من الاتجاهات. وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه فينشأ على أوضاعه ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له. أى للمجتمع.

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة. بل أن الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى، فان المختلفين على كتب نيتشه فى مذهب القوة يحتدون ويتعصبون، وكتاب داروين عن أصل الأنواع لايزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين. فهو كفر مظلم عند أولئك وهو رؤيا منيرة عند هؤلاء.

وإنى واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين.. لأن التطور عندى مذهب سام قدس نفسى وغيرنى ووجهنى. وهو ليس عندى تفكيرا فحسب وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية. فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجودية على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية. ولكنه فى ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم

يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله. أما نظرية التطور فإنها قد خلفت عقولنا ثم استقرت فى عواطفنا فهى إحساس وشهوة تنبض بهما عروقنا وتخفق بهما قلوبنا.

وإنى حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء واستسلم للأفكار الخضراء أحس، بدافع من هذه النظرية، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحى. أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش، بل أحس كأنى أريد أن أنكب على الأرض وأقبلها كما كان يفعل اليوشا فى قصة «الأخوة» لدستوفسكى.. هذه الأرض الطيبة، هذه الأم القديمة.

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التى غيرتني. ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس.. فتغيرت رؤياى للدنيا وتغيرت نفسى ومزاجى وعاطفتى. وهو تغيير يحسبه الجاهل كفراً وأحسبه أنا إيماناً.

وهناك كما قلت عشرات من الكتب البذرية التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفوها.

اعتبر الفكرة البذرية فى أحد مؤلفات برناردشو وهى أن البشر يجب أن يهدفو إلى استنتاج السبرمان الذى سوف يتفوق علينا ذهنا وروحا وجسما بمقدار ما نتفوق نحن على القردة. ما أطيبها من فكرة وما أبرها! إنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة.

أو أعتبر الفكرة البذرية فى كتاب اينشتين. هذا الكون الدائرى. وهذه الطاقة الذرية وهذه المادة التى تذوب فى الطاقة، وهذه الطاقة التى تتكاثف إلى المادة.

بل أعتبر هذه القوة الجديدة فى هذا العلم الجديد «علم الطاقة الذرية». فإن المفكرين الذين أحزنهم وهد فى ضمائرهم إلقاء القنبلة على هيروشيما يسمعون الآن فى طرب محاولة الروس نقل المياه التى تذهب عبثا وخسارة إلى المحيط القطبى الشمالى إلى بحر قزوين المتاخم لايران حيث تروى خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحة إلى أرض نضرة تبتسم بالخيرات.

وكل هذا من أثر الكتب. إنها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية، كتب داروين. ولامارك، وانيشتين، وتولستوى، وبرناردشو، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل. والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأكل وهضم من موائدهم يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتاب التافهين.

والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح فى جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الخيانة. ولكنه يعرف أن هناك جريمة تعلو على جميع هذه الجرائم فى الخسة والنذالة والحقارة والخيانة هى الحجر على الذهن البشرى ومنه، من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ. هذه هى الخيانة الكبرى للانسانية.

والحكومة التى تجترئ على مثل هذه الخيانة فتمنع كتاباً قيما من الدخول إلى بلادنا أو من الطبع أو التداول هى حكومة تخون الإنسانية. وتنتهك الفكر البشرى المقدس. وهى بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والذكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بلداء أغبياء.

* * *

من الأسئلة التى يضعها كاتب سخيف لقراء سخفاء هذا السؤال:

لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك فى جزيرة أو سجن أى كتاب كنت ترغب فى اقتنائه حتى تأتنس أو تنتفع به؟

وسخف هذا السؤال يرجع إلى أن العقل العصرى الراقى قد أصبح عقلا مركبا يحتاج إلى التناقض والتناسق وإلى المنطق والإيمان وإلى الخيال والتعقل وإلى التحليل والتركيب وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية. وكل هذا لا يمكن أن يحتويه كتاب واحد.

ونحن نختار الكتاب فى العادة كى تزيد فى معارفنا ولكن المعارف الموضوعية هى المادة الخامة للثقافة. إذ ليست الثقافة معارف فقط وإنما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة الفلسفية. وصحيح أن كل هذا ينبنى على المعارف الموضوعية. ولكن هذه المعارف هى الدرجات الأولى أو الأسس التى نبنى عليها حياتنا الفلسفية.

وهناك من الأذكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع فيجدون فيها الايحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم. ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذى يثير الاستطلاع ويبعث إليهم بالخمائر ويوجه ويرشد. أما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الذكاء المتسائل وأما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التى صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهنى.

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفيا جديدا أو خطة واتجاها جديدين للفكر البشرى. وهذا

الكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا. وأحيانا يتغير القارىء لأنه أنساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التي ممست غيره قد انتهت إليه.. فأثرت فيه وأحدثت وقعا جديدا في نفسه وعقله.

وليس كل منا كما قلنا، قادرا على الاستنباط الفلسفي من المعارف. أو ليس قادرا على الاستنباط الأمثل. ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا أفاقا جديدة أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا أو يبرزون لنا الفكرة الايمائية من بين العشرات من الفكرات المألوفة.

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الايمائيين من عصر لآخر. وبعض العصور يساعد على هذا التغيير لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الذهن بل أحيانا يلهبه. فى حين أن العصر الزراعى مثلا، يعمم الركود فلا ينبه المؤلف. ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد. أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار وقد يهتدى فى هذا البحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة. وهذه هى النهضة.

وحيث تكون النهضات كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر أو فرنسا فى القرن الثامن عشر نجد التسائل والاستطلاع، ثم الاستنباط تحليلا وتركيبا. فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى وأختلاف فنى. وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى

ولكنهما ليسا امارة الانحلال وإنما هما علامة النشاط في مجتمع يمرح مرح الطفولة التي تزخر بالحياة.

وهذا بعكس المجتمع الزراعي حيث ركود التاريخ والتقاليد. فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد. بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ويحظر التفكير من عيادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية إذ هو كالمريض يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ولو كان هدوء الموت. ذلك لأنه لا يجد في هذا التجديد ما ينبهه تنبيه الصحة ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله.

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعلمين والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً حتى يبقى ذهنه يقظا نشيطا وحتى تزد حياته حيوية بتجديد عاطفته ومنطقه معاً. وهذه الكتب هي التي تخرج به عن مألوفه. وكما يخرج الفقير الذي يعيش في زقاق محدود إلى الحقول فينتعش ويتنفس الهواء الجديد، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة أي من الطريق الدهس إلى تلك الآفاق الرحبة، حيث النور والهواء المنعشان. أجل وحيث الوعورة في الطبيعة البكر التي تبعث على التفكير البكر الوعر.

ولكل عصر مناخه الثقافي ولكننا نعيش في مصر في مناخ لا يلائم القرن العشرين. وإنما يلائم القرن العاشر. أجل نحن في عقم ثقافي. ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعي والاقتصادي. ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير في المفكر التافه حين يقول إن الطربوش شعار وطني، أو إن المكان الطبيعي للمرأة هو البيت، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير كأن هذا الموضوع يرتفع في اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية.

ومرجع هذا إن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجيهى ينقلهم من الركود إلى النشاط ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه قد بلغ الستين من السن الزمنية ولكنه لا يزيد على صبى فى العاشرة من حيث النضج السيكولوجى.

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع. وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة. وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته. ولكن مجتمعنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه. ولذلك أقول مرة أخرى أننا فى عقم ثقافى لا نلد ولا نتوالد ولذلك أقول أيضا فى صراحة مؤلمة إن القارئ المصرى لن يكون متمدينا على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية إلا إذا درس لغة أوروبية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض. وهؤلاءهم المؤلفون الايمائيون.

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحوت وتربيت بها. وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافتى.، ولكن اختيارى لهم لا يعنى أنى أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم لأنى إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنتائج فى تكوين شخصيتى وأن أشير إلى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين. وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة. وأنى بالطبع لا أذكرهم هنا إلا أنهم كانوا ا ختبارا عميقا أثر فى نفسى

طوال هذه السنين. وللقارئ أن ينتقد وأن يعرف من اصاباتى كيف أصبت ومن أخطائى كيف أخطأت. ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار. ثم يشق طريقه بنفسه.

فولتير محطم الخرافات

يهفو الذهن إلى ذكرى فولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التى تفيد الحرية وتسوغ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع الحدود والسدود للعقول وتنتهك النفوس البشرية بأفظع مما ينتهك الفاسق الأجسام البشرية.

ذلك لأن فولتير عاش من أجل الحرية. وكانت إيماءة حياته احترام الإنسان وكرامة الناس وحريتهم. ومن الحسن أن نقرأ تاريخه ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة فى مصر على أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف فى أقل من سنتين بين سنة ١٩٤٤ و١٩٤٦ و١٩٤٦ ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوروبية من الدخول فى مصر كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها.

ولد فولتير فى ١٦٩٤ ومات فى ١٧٧٨. وتغير تاريخ أوروبا بحياته. إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير. وغرس بذلك شجرة الديمقراطية وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها كما بسط الآفاق لحكم العقول. فظهرت الحكومات المدنية العصرية.

وقد كان فولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة طبقة الصناعيين والتجاريين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء في المجتمع الأوروبي.، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقا. لأن النبلاء الاقطاعيين كانوا يستعبدون الفلاحين. وعاش فولتير طوال عمره وفى نفسه حزازة. فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبسه في سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاما منه لبضعة أبيات من الشعر ألفها عنه فولتير. وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الاقطاعي. وسافر إلى انجلترا وبقى بها أربع سنوات فأعجب بشيئين هما الدستور الانجليزى الذى ينص على أن الحكم للشعب، وأيضا العالم الرياضي نيوتن. ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الانجليزى فى الحكم. ولو أن الحاكمين تنبهوا فى ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها. وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى.

واسوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين. وهذا ما فشا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر. فقد صدر قانون فى ١٧٥٧ باعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين. وصحيح أن هذا القانون لم ينفذ لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التى يستهدفون لها إذا جرءوا على تنفيذه. ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت بسبب هذا القانون واستمر احراق الكتب إلى ١٧٨٨ أى قبل الثورة بعام واحد.

ولكن فولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة أى مزورة كى ينجو من خطر الاعدام. وكان فى هذه

الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومي والكنسي. وقبل كل شئ يدعو إلى التسامح وأن الناس أخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين، مسيحيين أو مسلمين، يهوداً أو بوذيين.

ولقى فولتير عنتا فى دعوته إلى الحرية وخاصة حرية العقيدة لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحال فى أيامه الحكومة الفرنسية وكانت تحمل الحكومة والشعب معا على التعصب وايذاء غير الكاثوليك.. وقد كتب فولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العائلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة.

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية.

وكان من احتياله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضا أخرى فى فرنسا. وكانتا تتجاوران. وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذ وجد الحملة عليه من الأولى أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية.

وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم.

وقد كان فى باريس شيء يسمى «برلمان» ولكنه لم يكن يمثل الشعب. ولذلك كان أعضاؤه يسيرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنيسة معا. وقد عنى هذا «البرلمان» بأن يحرق قصيدة لفولتير..

وألّف فولتير المعجم الفلسفى، فمنعت الحكومة الفرنسية بل معظم الحكومات الأوروبية تداوله وحكم على مؤلفه بالكفر.

وشاعت لفولتير أخيرا شهرة بأنه زعيم الحرية فكانت تصل إليه شكاوى المضطهدين من الأحرار من جميع الأقطار يطلبون منه الدفاع والاسعاف. وكان يجمع لهم المال كى ينقذهم من حكوماتهم ومن كنائسهم.

ومازلنا إلى الآن نسمع عبارة فولتير «اسحقوا الخزى» وهذا الخزى هو اضطهاد الأحرار المخالفين للكنيسة.

ومع كل ما اتهم به فولتير لم يكن كافرا فإنه كان يؤمن بالله أعظم الإيمان. ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب ألا تحتكر الدين. وأننا يجب أن نكون «إلهيين» قبل أن نكون مسيحيين أو يهودا أو هندوكيين وهو يقول أن:

«كلمة الإلهى هى الوصف الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإنسان والكتاب الوحيد الذى يجب أن يقرأ هو كتاب الطبيعة. والديانة الوحيدة هى أن نعبد الله وأن يكون لنا شرف وأمانة. وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سبباً للأذى».

وكان فولتير يرى الله فى كل مخلوق حتى قال: «إن فى البرغوث شيئا من الألوهية».

وكتب عن نفسه فى المعجم الفلسفى يقول:

«إنى أجهل كيف تكونت وكيف ولدت.. وقد قضيت ربع حياتى وأنا أجهل تماما الأسباب لكل ما رأيت وسمعت وأحسست. وكنت ببغاء

تلقننى ببغاوات أخرى. ولما حاولت أن أتقدم فى الطريق الذى لا نهاية له لم أستطع أن أجد طريقا معبدا ولا هدفا معينا فوثبت وثبة عالية أتأمل الأبدية ولكننى سقطت فى هوة جهلى».

والواقع أننا حين نتأمل حياة فولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية قد انتفعت بعداوته لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين. وكان هذا الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل لفسادها.

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة. لأن اعتلاء الدين للدولة يضر الدين ويحطه إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع به من قوة بوليسية وحماية قانونية. والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان مادى، أى حكومى أو بوليسى، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة وحتى يصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية.

وهذه هى مهمة فولتير التى علمها لأوروبا مهمة الحرية الفكرية وفصل الدين من الدولة.

وليس لفولتير عبرة أو دلالة واحدة لعصرنا وإنما له عبر ودلالات كثيرة. فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر.

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات ترتكب أفظع الجرائم وهى جريمة الخيانة للروح البشرى. وعبرة أخرى نستخلصها من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى. وأن أدباء البرج

العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم ولا منفعة منهم. بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة.

وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته من حيث أنه يكتب عن إحساس ووجدان بما يحس ويجد. ثم يصدر عن ذلك مفكرا للتنظيم والتوجيه. ولذلك قيل أن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه. ومن المحال أن يقنعنا كاتب فاسق بضرورة الطهارة. أو كاتب يتعلق بالمستبدين وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية.

ولقد عشت حياتى وهنئت أيما هناء وتعزيت أحيانا أيما عزاء بمرافقة فولتير وتأمل كلماته وتتبع حياته فى أخطائها وأخطارها وتطوراتها. وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معا أن حرية العقل هى قدس الأقداس فى النفس البشرية.

كانت حياة فولتير كفاحا نجح فيه ورد إلى الإنسان حريته بعد أن كانت قد حرمته إياها الكنيسة والدولة. واستطاع أن يحمل جماهير أوروبا على الإيمان بالطبيعيات بدلا من الغيبيات إلى حد بعيد. كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته وأن يجعل للتنقيب التاريخى فضل الاهتداء إلى الحق والباطل فى العقائد. ودعا إلى العقل دون العقيدة. وأكبر لذلك من شأن بيكون داعية التجربة وديكارت داعية العقل. وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث أنه رائد العصر الجديد عصر العقل والعلم. وقد كتب فى ١٧٦٠ إلى هيلفيتيوس يقول: «أن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل».

ولقد عشت فى هذا الوطن الأسيف، مصر، نحو ثلاثين سنة من ١٩١٤ إلى ١٩٤٩ فى أسر الأحكام العرفية والرقابة القلبية. وذلك كى

يعيش المستعمرون من الانجليز والمستبدون من المصريين وهم فى تحالف لمنع الحريات عن الشعب. وقد الفت كتابين عن الحرية هما «حرية الفكر» وهو تاريخ للأبطال الذين كافحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل. ثم «حرية العقل فى مصر» وهو دعوة إلى الغاء إدارة المطبوعات التى تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامة مالية. وفى كلا الكتابين أنغام تتردد من ذكرى فولتير.

وقد كان فولتير يقول: «إنى قلما أتعمق ولكنى واضح الفكرة على الدوام» وهذه كلمة أستطيع أن أقولها أنا أيضاً. وإذا كنت فى حياتى الأدبية قد وصلت إلى أن أختص بأسلوب فأنى أعترف هنا بأنى لم أقصد قط إلى هذا الهدف. وإنما كانت غايتى أن أصل إلى التعبير الجلى الذى يوضح فكرتى. وأظن أنى نجحت فى ذلك.

وعند الفرنسيين مثل يقول: «ما ليس واضحا ليس فرنسيا» ولهم الحق فى ذلك. وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى تعلموه من فولتير وأمثاله.

جيته... الشخصية العالمية

المشهور عن جيته أنه أديب عظيم، وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة «آلام فرتر» ودرامة «فاوست». وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد، لأن كثيرا من سطورها يحوى الحكمة العالية.

وقد كان جيته يكتب يومياته، أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال. ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما:

* * *

- فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة، وأرسلتها للنسخ.

- قرأت فروسشموزلر عن أنواع الحشرات.

- تجارب فى الكهربية الجلفانية.

- فى المساء مع شيلر: أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر.

- ثم فى الصباح المبكر صححت قصدتى:.. ثم قمت بتشريحات الضفدع.

– استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة... تحدثنا عن تخطيطها... وقبل ذلك زعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية.

– فى الصباح وضعت جدولا للألوان.

* * *

والمتأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام جيته يحتاج إلى التساؤل: أأديبا كان جيته أم عالماً؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا.

إن عبقرية جيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن. وإنما كانت فى شخصيته. وصحيح أن له مآثر فى هذه الثلاثة، ولكن مأثرته الأولى هى شخصيته. فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيرا بموهبته فى الشعر والأدب، فكان جوابه: إن من حقى أن أعنى بشخصيتى وهى أكبر من أدبى.

إن هم الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة أو مقالة، ولكن هم جيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه.

وجمهور القراء يعرف أدب جيته. ولكن قليلا منهم من يعرفون أبحاثه العميقة فى العلوم. فإن له مكتشفات فى الجيولوجية والبيولوجية والبصريات. وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهانا على فضله فى الجيولوجية. وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع، وهو المشكلة التى أرصد «داروين» بعد ذلك حياته لحلها. وقد استطاع جيته أن يكشف عن أن المخ هو امتداد للنخاع الشوكى.، ومما يذكر عنه أنه عقب هزيمة نابليون قدم إليه نبيل ألمانى، فسأله عن رأيه فى

هذه الزعزعة الجديدة التى تعم أوروبا، فأجابه النبيل بأن «الحلفاء» قد أساءوا السياسة فى مؤتمراتهم وأن نابليون...

ولكن لم يكد النبيل يتم جملته حتى صاح به جيته: أنا لا أسأل عن هذا. لست أبالى هذا. إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سانت إيلير وكوفييه ولا مارك عن أصل الأنواع وتطورها.

وكان هذا الموضوع يزعزع جيته نفسه، وكان يهتم به أكثر مما كان يهتم بالسياسة الأوروبية التى زلزلها نابليون. ومن هنا اهتمامه بترتيب الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربية... الخ.

* * *

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم: لأن اهتمامه الأول كان بالحياة. فكان يحب ويختبر ويسيح ويملأ المناصب الحكومية. بل إنه لم يجعل الآداب أو العلوم هدفه؛ لأن الهدف الوحيد الذى سدد إليه نشاطه هو شخصيته. وتعبيره حين كان يقول إنه يبنى «هرم» شخصيته يدل القارئ على أنه الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية.

وإذا كان لكل كاتب عظيم رسالة؛ فإن رسالة جيته لم تكن الشعر أو القصة أو العلوم، وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذى يحيا حياة الوجدان والعقل. ومن هنا كلمة براندیس الأدب الدنمركى: إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته.

والمعنى أن الأمة التى ارتقت فى ثقافتها إلى المرتقى الذى تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هى الحياة نفسها هى الأمة الراقية. أما

إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأى نشاط أو هدف آخر مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك فهى غير راقية. بل إننا حين نقول إن الحياة هى الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى للنشاط البشرى. ونستوعبها مع ذلك فى تناسق يتفق والحياة العالية.

وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس، وهو أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع.

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢. فعاصر روسو وديدرو وفولتير ود المبير. هؤلاء النجوم الذين أحدثوا النهضة الأوروبية الثانية. ثم رأى مخاض العصر الجديد فى الثورة الفرنسية وفى شهابها الساطع نابليون. ورأى - عقب هزيمة نابليون فى ١٨١٥ - المؤتمرات الأوروبية تومى «إلى الاتحاد الأوروبى؛ بل لقد رأى هذه الفكرة تختمر أيام نابليون.

أجل، إنه عاش فى عصر عاصف، ولكنه لم يترك العواصف تمر به وهو جامد، بل استجاب لها وتفاعل معها. وقد درس القانون فى الجامعة، وعرف دوق فيمار الذى أحبه وعينه وزيرا لهذه الدوقية الصغيرة. ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أبهة، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة للتدخل فى السياسة الأوروبية وفهمها. وزار إيطاليا فعرف فيها جمال الشمس وجمال الفن.

وتزوج واستمتع بمسرات العائلة كما كابد همومها. ومارس الزراعة واقتنى ضيعة. وأشرف على المسرح، وأحب فتاة حبا كان يحمله على البكاء وهو فى السبعين.

وكان مفراحاً يحب الاجتماع، ولكن هذا المزاج الفرح كان أحيانا - كما هو الشأن فيه - يحمله على الاعتزال والاعتكاف. ولكن أوقات نشاطه وإلهامه كانت تنحصر فى أيام الفرح والاجتماع.

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق. إذ ليس كل ما نعرف حقيقيا.

وأن يجمع معارفه واختباراته فى فلسفة أو دين. أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر.

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة.

وأن يحس حركة التاريخ فى كل يوم من أيامه.

وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا، هذه الدنيا، وهذا الكون.

وأن يكون قد وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير فى الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر.

فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل. وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر.

والرجل الناضج متدين. وديانته إحترام الحياة.

وكى نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقيها وتطورها إلى أعلى.

ومقياس العلو فى التطور هو مقياس بشرى على كل حال.

وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التى يتكون منها الرجل الناضج.

ومن علامات النضج فى الإنسان أن يرتفع من همومه الشخصية إلى الاهتمامات العالمية.

ومن علامات النضج فى الأدب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة فى الحياة. ففن الكتابة عنده يستحيل

عندئذ إلى بعض الفن فى حياته هو. ومن علامات النضج أيضا أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها.

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج. فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصى آخر: نظرية التطور. قناة السويس. اتحاد أوروبا الديانات الشرقية.

وحقق الفن والحب فى حياته. فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات القصص التى كان يمارسها.

وقد عاش فى أيام الانتقال من حكم النبلاء والنظم الاقطاعية إلى حكم الصيارفة والصناعيين والتجاريين، هذا الحكم الذى عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه الثوة الجديدة ودعا إلى تأييدها. بل أننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه فى قصته فاوست. بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقى لهذه القصة.

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته فى الحياة والأدب والحضارة. ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف، لأن معارفنا أكبر جدا من معارفه، كما هى أكبر من معارف أرسطو طاليس أو أفلاطون. وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى أتبعه، وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع.

نكسب منه الحياة الفنية، أو كما كان يقول حرية الروح: «إن أى إنسان عرف وفهم مؤلفاتى وشخصيتى حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأنى قد حققت لنفسى حرية الروح».

* * *

كيف كان يعيش جيته وكيف كان ينظر إلى نفسه؟ أى ما مقدار وجدانه بشخصيته؟

كان جيته يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول. وكان يتعب من القراءة فى ضوء الشموع. وكان هو الذى يقص بنفسه فتيلة الشمعة. وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة: «النور». لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية. ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء.

وكان يعيش نهاره كله، فلا ينام، أى لا يقيل، وكان يفطر فى الساعة الحادية عشر بفنجان من اللبن والشكولاته، ثم يتغدى فى الساعة الثانية، ثم يتنزه، ثم يكون العشاء، فالقراءة والدراسة.

ولما بلغ الثمانين كتب فى يومياته: «هل بلغت الثمانين؟ وهل يجب على لذلك ألا أتغير؟ بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق؟ إنى أحس كأنى أختلف عن سائر الناس وأبذل مجهودا أكبر منهم كى أفكر كل يوم فى شىء جديد، حتى أتجنب السأم. أجل! يجب أن نتغير على الدوام وأن نجدد شبابنا على الدوام. وإلا تعفنا!».

ومن أقواله فى شيخوخته أيضا: «إنى أمتاز بالحظ الحسن فى شيخوختى لأنى أجد فى ذهنى أفكارا. لو أنى شئت أن أواليها حتى تتكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتى مرة أخرى».

وكان يكتب يومياته. وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوما بعد يوم.

وكانت حياته خصبة بالحب، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف. ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة فى النسك، وإنما هى بعض المزاج العام فى الفرحين وكأنها ادخار للقوة للإنتفاع بها أيام السرور.

وكانت اختباراته كثيرة واستمتاعاته الاحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية، لم يحصر ذهنه فى تخصص. فقد أحس الحب الحنانى وهو فى الثامنة عشرة فألف قصة «آلام فرتر»، ثم جحدها لأنها تحفل بالحنان واليأس والضعف. وكان يقول إنه يخجل منها عندما أينعت شخصيته وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته.

* * *

بدأ جيته حياته الذهنية بتعلم القانون وتأليف قصة اليأس والموت فى «آلام فرتر» وانتهى فى سنى نضجه وإيناعه باتجاه إيجابى بناء للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوروبا، وألف قصيدة فى مدح نابليون قال فيها. «إن الذى يقدر على كل شىء يقدر أيضا على السلام» ما أبدعه هنا.

وكان يفكر فى قناة السويس وقناة بناما. ويشتهى أن يعيش خمسين سنة أخرى كى يراهما محفورتين مسلوكتين. ذلك أنه اتجه الوجهة العالمية، فأصبح يقول كما كان يقول شيلر. «وطنى هو العالم»، ولذلك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة.

* * *

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم، ولم أتعلم فنا أو أدبا أو علما وإنما هو منهج الحياة التى عاشها جيته كان ينبهنى من وقت لآخر كى أعيش على مستواه.

ولست أجد فى جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئا عظيما سوى القليل من اللآلىء. وهو من حيث الشعر يعد من ذلك الطراز الذى يذكر له البيت الذى يتوهج بالحكمة، ولا تذكر له القصيدة التى تعالج موضوعا. ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيرا حين نقرأ مؤلفاته، ولكننا نتعلم ونتنبه ونحس كأننا كنا نياما ثم استيقظنا حين نقرأ حياته.

هو منهج الحياة الذى يعيد إلينا ذكرى دافنشى الرسام المثال الجيولوجى المهندس الفيلسوف الأديب الرياضى العاشق، الذى تعددت اهتماماته. لا لأنه تعمد هذا التعدد، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة الموضوعية الموسوعية التى تثير الإستطلاع وتهيىء المشكلات الثقافية التى يشتغل بها الذهن.

وكان جيته مثل دافنشى ينظر إلى الطبيعة، بل إلى الفنون، هذا النظر الموضوعى، ومن هنا زاد استطلاعه وتعددت اهتماماته، وأصبحت ثقافته موسوعية. والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنياً، وإنما كان الفن الذى اهتم به هو فن الحياة، ثم كان الأدب جزءا من فن الحياة.

* * *

ونتعلم من جيته أن غاية الحياة هى الحياة. أى ترقية الشخصية بتربيتنا وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهما لأنفسنا وللطبيعة، فتزداد بذلك استمتاعا. ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أى شىء آخر لأنه ليس هناك ما هو أهم منها عندنا وذلك بأن نطلب الاختبارات، ولو كان الخطر فيها.

ونتعلم منه أن التخصص ضرر، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها. فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والقنبلة الذرية، بل كما ندرس جنون الشيزوفرنيا وقوانين الوراثة.

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الاختبارات إذا لم تصادفنا، فنقرا ونسيح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل بترقيته.

ونتعلم منه أننا - حتى فى الشيخوخة - يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة. ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة.

وأخيرا نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير: العالم

* * *

قلنا أننا لا نكسب من جيته معارف، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته: حياة فلسفية تغتذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية بالنمو الذى يستحيل إلى نضج.

ولكننا مع ذلك نجد أن لجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثاقفى الأوروبى بين ١٨٠٠ و١٨٢٩.

ذلك أن المذهب الانفصالى كان لايزال قائما بين النفس والجسم أو العقل والمادة. وداعية هذا المذهب الثنوى هو أفلاطون الذى فصل بين الفكرة والمادة. وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ولكن جيته رأى غير ذلك. بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية فى أوروبا. أى أن الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كلها شىء واحد. وأن الإنسان ليس مخلوقا منفصلا وإنما هو تعبير خاص للطبيعة العامة التى فى الجماد والحيوان والنبات. وأن الحقيقة الأولى فى هذا العالم هى التغير والاستحالة. فالطبيعة دائبة فى التغير

والتشكل بأشكال مختلفة. وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطينة التى نبضت بالحياة الأولى.

وقد قال ذات مرة أن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل عام تنتظم به التغيرات والاستحالات فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان.

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد التفسير الذرى للجماد والحياة والفكر البشرى والماء السائل.

وهذا هو ما ننشده جميعا ونوشك أن نهتدى إليه.

داروين ... عار العائلة

«أنت لا تعنى إلا بالصيد والكلاب، واقتناص الجرذان، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك».

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة. فقد تسكع فى دراسات مختلفة، ولكنه لم يستقر على واحدة منها. فقد التحق بكلية الدين ثم تركها، والتحق بكلية الطب ثم تركها. وفى غضون ذلك كان يلعب، زو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب. يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات، ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ويفكر تفكيرا سريا كأنه يتآمر على الكون كله. كى يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه.

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التى قالها أبوه عنه لا يعد داروين عارا على عائلته بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجليزى. وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية، ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال: «أظن أن أبى قد قسا على بعض القسوة».

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل، ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن، نستطيع أن نقول أنه أكسبنا فهما جديدا للطبيعة والكون والإنسان. وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل. فإن كتابه «أصل الأنواع» الذى أخرجه فى ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين: زولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات، وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة، وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة، وأن الإنسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر.

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها. ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا. ونحن هنا بهذه المثابة نفسها نحو أرسطو طاليس. فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم فى المعارف. ولكنه أكسبنا المنهج. فنحن نفكر فى التطور الداروينى. ونفكر متطورين. وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والميلجرام فى الحيوان والنبات كما أصبح أيضا مذهبا دينيا، أو مبدأ أخلاقيا عند المثقفين، وانفسح به التاريخ البشرى آفاقا إلى ملايين السنين، يل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر.

لقد قيل إن جاليل حط الإنسان من عليائه، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون. وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس. بل الشمس أيضا نجم صغير لا يختلف من ملايين النجوم التى نراها كل ليلة فى المساء. ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العلياء من جديد، وأثبت أنه لم يكن عاليا فسقط، وإنما هو كان ساقطا يعيش على حضيض الطبيعة حيوانا كسائر الحيوانات والحشرات. ثم ارتفع. وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر، وأحس أنه تاج التطور،

وأن له الحق فى تدبير هذا العالم، وفى تعيين السلالات القادمة، بل ماذا نقول؟ فى إيجاد البشرية الجديدة.

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته. ولا ينتقض هذا من عظمته، فإن تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها. ذلك أننا نفكر بحوافز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع، بما يفرضه علينا من القيم والأوزان، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال. والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها، فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا.

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين. ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة فيما بين ١٨٢٠ و١٨٦٠. وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين، وكانت انجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة، فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان، والثروات تنمو، والمزاحمة على أقصاها، وإنجيل النجاح يدرس بل يعبد. والسياسة تخدم الاقتصاد وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق فى المستعمرات. وأصبحت انجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة.

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى إنجلترا.

وفى تلك السنين أيضا قرأ كتابا أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الانجليزى. هو كتاب القسيس مالتوس عن السكان. فإن هذا القسيس كان من المحافظين الإنجليز الذين يكرهون العامة، ولا يرون فيهم سوى غوغاء. فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ثم أعلن رجالها مبادئ الأخاء والمساواة والحرية، فكر مالتوس كثيرا بحافز من عواطفه، فأخرج كتابه عن السكان. وكان المعنى الذى قصد إليه أن هذه الآمال الفرنسية فى الاخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و٤ و٨ و١٦ الخ فى حين أن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و٢ و٣ و٤ و٥ الخ. فإذا عاش الناس بلا مرض أو حرب أو حرمان لم تكفهم المحصولات. وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم. وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فتساءل: لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة؟ فإن الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف، فهى يجب، أن يزاحم، بعضا بعضا، فتكون الحرب بينها أى تنازع البقاء، كما فى لنكشير ومصانعها تماما.

وفى ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة «البيجل» كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد. ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا؟

العاطفة الحافزة إجتماعية أيضا. وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية، لأن السياسة على الدوام تسير خلف الإقتصاد. وكانت أسواق العالم وقفا على المصنوعات الإنجليزية. لأن الحركة الصناعية الإنجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جمميع الأمم. فمن هنا كان الإهتام بالبحار والملاحة والأقطار النائية. ومن هنا أيضا كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة «بيجل» كى يدرس الحيوان والنبات.

ولم يكن داروين جديدا فى هذا البحث: أصل الأنواع؛ فإن لامارك الفرنسى سبقه إليه، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها. بالمرانة التى ورثت جيلا بعد جيل، قد أشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار. فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل. بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع. فكانت النظرية «فى الهواء» تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها. بل كانت أكثر من ذلك. فإن جيته الأديب الألمانى كان يشتغل بها ويسأل عنها، وكان يتابع النقاش الحامى بين كوفييه الذى كان يقول بثبات الأحياء وبين سانت هيلير الذى كان يقول بتحولها.

كان داروين شابا فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل فلما وصل إل أمريكا الجنوبية، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة. ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان. فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات.

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية. فقد سبقه إليها جده كا سبقه إليها لامارك الفرنسي. ثم هناك الظروف الأخرى: مالتوس وقلة الإنتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها.

ولكن لا! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية، فى أوسع معانيها، حين تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف، هى الحافز للتفكير، فإننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية. إذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر فى هذا الموضوع الخطير، ولما جعله هدفه فى الحياة.

لقد قال داروين عن نفسه: «إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير».

ولكن داروين ظلم نفسه فى تواضعه بهذه الكلمات. لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه. إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد. ولو أنه لم يكن يجهد لما قال هذه الكلمات إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله.

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير، وأنه كان مريضا أو متمرضا فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيره به كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته، فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات. وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف، فإذا جاء النهار كتب

كلماته القليلة، ثم يبقى سائر نهاره مريضا، ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه، كأنه يقول: طلبتم منى النجاح والتفوق، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقا. ولو أن داروين نجح وصار قسيسا أو طبيبا كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيسا أو طبيبا يمارس حرفته ويكسب منها. ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المريضة التى زعزعت الثقافة العالمية من أساسها، بل زلزلتها وعينت أهدافا جديدة للإنسان وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضى ورؤيا المستقبل.

لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ولكنه لا يخرج كتابا عنه ولا يكتب مقالا. ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه، هو أن وولاس كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية. وكان مشغولا بالموضوع نفسه أى التطور. وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضا. فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع. وصعق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات، فلابد أن يكون هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام، وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض.

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى إنجلترا عن رسالة وولاس. وشرع هو أيضا يؤلف كتابه «أصل الأنواع». ونستطيع أن

نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معا. ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية. لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بيانا وأدق منطقا.

وأخرج داروين كتابه «أصل الأنواع» فى ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان.

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة، حتى ليتساءل الناس: كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرها مما يربيه الناس، وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة. وما استطاعه الإنسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته، وأكثر منه، الطبيعة فى ملايين السنين الماضية، حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات. فهناك فى الغابات والبحار والجبال والسهول، إنتاج محدود من الطعام، ولكن هناك توالدا يتضاعف بين الحيوان والنبات، ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والحيوان. فلابد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء أى لأجل الحصول على الطعام. وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفيا، هو كما فى النفس الأخير، فى الثوانى القليلة، فى صراع يدوم الساعات. أو فى القدرة على الجوع أو العطش، أو فى طرق الحماية للنسل، أو فى القدرة على التطفل، أو فى الجراءة والبطش.

ومادام كل فرد يولد مختلفا عن الآخر فى الحيوان والنبات، فإن هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز، فهو يساعد فى

الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة. وهو يهيىء الهزيمة فى الحال الثانية. ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف. ولكننا نشاهده ونسلم به: ولذلك لابد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل. فإذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة.

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء، نباتا وحيوانا ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة، لأن التغير والتطور هما طبيعتها. ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضا تتغير فيه الأحياء.

وهذه هى الدلالة الخطيرة التى انتهى إليها قراء داروين، وهى أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط، وأن البوتقة لاتزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها. وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه. ونحن فى بداية هذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه. ونحن فى بداية هذا هو التوجيه الذى يخشى كثير منا دلالته لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة. ولأنه يضع النظام المادى للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبى.

لقد عالج داروين تطور الأحياء، وحاول تعليل التطور ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل، ولكنه لم ينجح كل النجاح. وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير، ومن كفاح الامبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع، تنازع البقاء، وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة. لأن الواقع أن البقاء عن طريق

التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع.

ونحن نعرف الآن كثيرا أى أكثر مما كان يعرف داروين. ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث، وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس. فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع. وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين. وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل، وتغير معنى الإرتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه. كما أصبح التطور فنا نمارسه فى إيجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة. وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة.

ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطى عن هذا الابتكار النازى الذى دعا إليه هتلر. فإن نظرية التطور لابد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق.. بل هى كذلك الآن ومنذ مئات السنين فى حيواناتنا ونباتاتنا، ونقلها إلى النوع البشرى لن يعد وثبة كبيرة.

* * *

أرانى بعد كتابة ما تقدم أنى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلالتها. ولذلك أحتاج إلى الإشارة إلى التنقيحات التى طرأت على هذه النظرية. وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لامارك: «إن الصفات المكتسبة تورث» وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرز «تنازع البقا وبقاء الأصلح».

ومع أن داروين التفت كثيرا إلى الدواجن وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والخيول. ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة باعتبار أن تنازع البقاء يحيي ويبيد، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان فى اختيار الصفات التى تعمل لبقاء الأفراد، فإن الموقف البيولوجى ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع فى الدواجن والتنوع فى الأوابد. ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع فى الطبيعة قليل جدا أو يكاد يكون معدوما، كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع فى الدواجن إنما هو بعيد عن مصلحة هذه الدواجن. وهو أشبه بالمرض منه بالصحة، وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن.

ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى داروينية جديدة» تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكمت أوجدت العضو الذى يؤديها. كالجمل الذى عاش فى الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على الحصا الذى يجرح جلده. فتضخم الجلد فى أمكنة الملامسة وأصبحت هذه الخاصة وراثية. وكاللجاة التى كانت مثل السلاحف تعيش على اليابسة، احتاجت إلى السمك طعاما فنزلت إلى البحر. ومازالت تمارس السباحة حتي استحالت يداها إلى زعنفتين.. الخ.

* * *

ولا أعرف كاتبا تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين. فإنه أعطانى لقب الذى أزن به أحيانا، و أحيانا أهدم به التقاليد. وجعل التطور مزاجا تفكيريا ونفسيا عندى، بل جعله عقيدتى البشرية التى تنأى عن الغيبيات. وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها، وأقيس

آمالي الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور. ذلك أن التطور فى أساسه منطق علمى ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية.

وإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذى علمنى.

هنريك أبسن . . . داعية الشخصية

هنريك أبسن هو داعية الاستقلال الروحى للإنسان عامة وللمرأة خاصة. وقد ألف درامته «لعبة البيت» فى دعوة المرأة الأوروبية إلى أن تستقل وتنشد الآفاق وتجرب التجارب وتختبر الدنيا وتربى نفسها بدلا من أن تعيش خلف الرجل يكسب لها ويحوطها برعايته ويدللها فى البيت ويقصر حياتها على الزواج والأمومة.

والاتجاه القديم للمرأة سواء فى الشرق أم فى الغرب كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل. وأنها خلقت للبيت. وفى أمم الشرق القديمة بولغ فى هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل بلذاته الجنسية. وفى هذا قال شاعر عربى:

ما للنساء وللخطابة   والقراءة والكتابة

هذا لنا ولهن منا.....

ولم يكن العرب منفردين فى هذا النظر. فإن أوروبا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضا إلى المرأة هذه النظرة فى القرون الوسطى. ولكن أوروبا كانت تمتاز بميزة كبرى هى أنها لم تفصل قط

بين الجنسين فى المجتمع ولم تعرف الحجاب إلا فى أيام الإغريق. ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقى يغلق الأبواب إغلاقا محكما كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى.

ولكن مظهر الحرية الأوروبية كان خلابا خادعا أكثر مما كان واقعيا حقيقيا إلى بداية القرن التاسع عشر. فإن كثيرا من الأمم الأوروبية كان يحرم المرأة الميراث. كما كان يحرمها التعلم فى الجامعات.. ولذلك بقيت محرومة الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون.

ولكن الضمير الأوروبى كان فى بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشرى وطرح التقالد بفصل الدين من الدولة. كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافا وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة. والمناخ الذهنى فى المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك. ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة فى المصانع والمدن. وقد جذبت الصناعة أيضا عددا كبيرا من النساء إلى المصنع، ووجدت المرأة فى هذه المصانع جوا منعشا بعث فيها الأقدام والاستقلال.

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبر فى بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات المفكر. فظهرت قصة مدام بوفارى للكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير، كما ظهر كتاب ستوارت ميل «إخضاع المرأة». ومدام بوفارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وآمالها فحطمت مما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات قضى عليها فى النهاية فانتحرت. وكأن المؤلف

يقول لنا أن حال المرأة الأوروبية سئ وأننا لا نفتح لها أبواب الرقى. ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل. وكأنه يقول أيضا: افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة.

أما كتاب ستوارت ميل فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة. وأن هذا الاستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنسانا، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا.

وجاء ابسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر. فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجعة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوروبية وأصبحت «نورا» بطلة هذه الدراما قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره.

وقد عاش ابسن فيما بين ١٨٢٨ و١٩٠٦ وقد غير أوروبا الأدبية وأحالها إلى الأراء العصرية إذ غرس فيها بذرة «البشرية الدينية» كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل. ودعا إلى الاستقلال النفسى وإلى ضرورة الجد فى الحياة بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحرارا مفكرين مكافحين مستقلين.

وابسن تروجى نشأ فى بيت ريفى. ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية. ولم يكن شيء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين ١٨٠٠ و١٨٥٠ لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب. إذ لم تكن عقاقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع. ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم.

ولابد أن ابسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المرانة الأولى فى الصيدليات. ثم احترف الصحافة فى كرستيانيا. ثم التحق بالمسرح فى بيرجن. وبقى متصلا بالمسرح للإدارة والإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين بيرجن وكرستيانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج.

وهذا الاتصال بالمسرح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف. فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية. وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدرامة لا تزد على أن تكون جلسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير.

وقد نقل الدرامة الرومانتية إلى الواقعية وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانيها المجتمع. ففى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوخيمة. وفى أخرى يعالج المسيحية والوثنية، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية الخ.

ولكنه كان فى كل ذلك شاعرا يرى الرؤيا فتمتد نظرته إلى الآفاق البعيدة. وفيما بين ١٨٧٠ و١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحدا لا يكاد يعرف الأصدقاء. وكان يخرج درامة واحدة كل سنتين تقريبا. وقد أوجد مسرحا جديدا فى أوروبا. وعندما نقرأ برناردشو نجد أن ابسين مصفر فيه. فقد ألف شو كتيبا فى الدفاع عن ابسن وأسلوبه الواقعى. وكما أن ابسن كان يرى رؤيا الشاعر فإنه أيضا كان يلتزم الحقائق. وهذا هو شأن برناردشو.

أما أفكاره وفلسفته فتتلخص فى قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها وان هذا هو الواجب الأول على الرجل

والمرأة. ومن هذه البؤرة تتشعع واجبات أخرى هى أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيى الحياة الشريفة الفنية الراقية وألا نخضع لأطياف الماضى وأشباحه. وقد كتب إلى أخته خطابا قال فيه: «أحب أن أرى كل شئ فى وضوح وصفاء ثم أحب بعد ذلك أن أموت».

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمائية أنه يحب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة واضحة خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التى تحول دون رؤيتها على حقيقتها. أى يجب على الأديب أن يكون واقعيا يرى الواقع الملموس ثم يبنى خياله على أساسه ويرى رؤياه من خلال عدسته.

وأبعد ما كان يبتعد عنه أبسن هو البرج العاجى الذى يعيش فيه الأديب السخيف يحلم ويتخيل فى عزلة عن المجتمع ومشكلاته كأن الأدب لذة موسيقية فقط ويجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد.

«الشخصية البشرية» هى إنجيل أبسن.

وإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة. وهل الحضارة فى عصره كانت تهيء لها أن تكون إنسانا راقيا مجدا لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدى رسالتها فى الحياة كما أن لها أسلوبا فلسفيا تتخذه فى عيشها أم لا؟

هذه هى المشكلة التى عالجها ابسن فى درامة «بيت الدمية» أو «لعبة البيت» واللعبة هنا هى الدمية التى تلعب بها الطفلة وهو يرمى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوروبية (حوالى ١٨٧٠) هى لعبة

الرجل يقومها ويقدرها بما تتسم به من سذاجة وجهل. وهى تولد فى بيت أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتدرب على إنكار نفسها فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم. فتنشأ محدودة الفهم قليلة المعارف قد سدت فى و جهها أبواب العمل الكاسب الذى يعمله الرجال ويكسبون منه أرزاقهم كما يكونون به شخصياتهم.

و«نورا» هى هذه الفتاة تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها فى جمال وبراءة وطهارة وسذاجة لها وجه كأنه قد صنع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقبلات فقط. وجسم قد شيدته الطبيعة كأنه يمثل النبل والروعة. وهى تتحدث بلغة قد هذبت كلماتها فلا تنطق بما ينطق به الرجال. أما العقل فهو العقل الساذج الذى لم يختبر الدنيا ولم تمر به الأخطاء والأخطار فيتعلم ويتدرب. ويتلقاها زوجها فيعاملها كما كان يعاملها أبواها. فهى حتى عندما تبلغ الأربعين أو الخمسين ستبقى طفلة.

وابسن يثور على هذا الوضع ويتساءل: لماذا تبقين طفلة؟ أين شخصيتك وذكاؤك؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا؟

وتجرى الدرامة فى سياق التمثيل الذى يوضح لنا أن المرأة لن تكون إنسانا إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوة إلى الإنسانية. وان هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر. ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعى أو المكانة الذهنية أو الفهم المحيط كما لا تتكون لنا شخصية إلا لأننا نختلط بالمجتمع ونعالج الخطأ ونقع حتى فى الخطر. وليس هناك رجل

يفخر بأنه ساذج أو طاهر أو برىء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه. لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية أننا نحب جهل المرأة وابقاءها طفلة أو «لعبة» كما يقول ابسن.

ونورا بعد أن تتكشف لها حالها هذه تترك بيت الزوجية، تترك الزوج والأطفال، بعد أن تشرح لزوجها أنها طفلة، وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها فى هذه الطفولة. وأنها ستخرج إلى الدنيا كى تعمل وتختبر حتى تنجز لنفسها وعد حياتها وحتى تؤدى حق إنسانيتها بأن تبنى شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت فى اخطار. ذلك لأن رسالة الإنسان فى هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياج من الواجبات الاجتماعية تحول دون فهمه أو بنائه لشخصيته.

وقد أحدثت هذه الدرامة ضجة كبرى فى العالم الأوروبى لأنها صدمت العقائد والتقاليد. ولكن الضجة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة والتسليم بأن جمالها القديم جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين هو جمال الأنثى.

أما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك أى يجب أن ينطوى على العقل النير والشخصية الراقية التى تدربت بالتجارب والاختبارات، وارتقت بالثقافة واشتركت فى شئون المجتمع، وقد كان ايسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين أتلمس المثليات الأوروبية والقيم العصرية وأبنى شخصيتى الذهنية وكان مركز المرأة المصرية يحز فى صدرى كأنه خزى أبدى لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة فى مثل كتابى قاسم أمين ثم، بعد نصف قرن، فى نشاط هدى شعراوى وسيزا نبراوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمثالهن.

ونحن الشرقيين قد ورثنا تراثا سيئا من القرون المظلمة هو تراث الرق والخصيان والحجاب. وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب ينسون خصاء الزنوج كي يتممه. أي يتمم الحجاب. ولعلهم يخجلون حين يذكرون ذلك.

لقد تعلمت من أبسن شرفا جديدا لم أكن أعرفه حين تركت بلادي إلى أوروبا في ١٩٠٧ هو شرف الإنسانية التي يجب الا يحدها حجاب المرأة. هو شرف الزواج الذي يقوم على الإخاء والمساواة ليس فيه سيد وعبد. هو شرف الأمة التي ترفع نساءها إلى مقام الوزيران والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات.

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الذهني في الرجل الناضج.. ولاتزال هذه الحال باقية في معظم أوساطنا. ولكن الدنيا تتغير وهي تتغير لمصلحة المرأة ورفعها وترقيتها. ولن ترتقي المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتنا وتشترك في الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار.

وليست عبرة «لعبة البيت» مقصورة على المرأة. فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضجين. ذلك أن الرجل العادي في كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال وليس له من الشخصية سوى الإسم. يخضع للتقاليد وينساق في تيار العرف. وصحيح أن الدنيا تربيه وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التي تحرم منها المرأة. فهو يخطىء ويصيب ويتعلم. ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التي تفتح ذهنه وتنير رؤياه. وكل هذا لا تصيب المرأة منه شيئا لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد.

ودعوة ابسن هنا: لتكن لكل منا شخصية. ولينظر كل منا إلى الدنيا كما لو كان هو محورها ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى إنه نافع له ولمجتمعه.

إننا نطلب الحرية من القوانين والدساتير ولكن كل ما نستطيع هذه أن تهبنا من حقوق هو على الدوام دون ما نهب أنفسنا. لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر ما تقيدنا به مظالم المستبدين التى تحاول الدساتير والقوانين محوها أو مكافحتها.

وحتى حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد حرياتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا لأننا نقاوم ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرقى منه. ولكن استبدادا للتقليد نغرس فى نفوسنا وبعين مزاجنا ويعودنا عادات ذهنية ونفسية تجعل كلا منا أسيرا، أجل وأسير تقسه مع ذلك. فالمرأة التى نشأت على الحجاب لا تحس هو أنه كما لا تعرف جهلها وهى لذلك لا تقاوم ولا تكافح. وكذلك شأن الرجل الذى يعيش فى أسر التقاليد وكأنها من طبيعة الأشياء التى لا تتغير بل لا تحتاج إلى التغيير.

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط أذ هو فى حجاب نفسى وذهنى. وهذه الدنيا هى ملك الإنسان وعلينا جميعا رجالا ونساء أن نتعلم وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع.. وعلينا أن نستقل وندرس ونختبر الحقائق. وليس هذا واجب نورا وحدها ولا واجب النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضا.

ونعم هذا الدرس الذى علمنا إياه ابسن درس حق كل إنسان فى تقرير مصيره وتربية شخصيته.

* * *

كنت قبل سنوات اصطاف بالاسكندرية وكنا نقعد رجالا ونساء فى اجتماعات عائلة على الشاطىء نتجاذب الحديث. وما كان أسخف ما كانت تتحدث عنه النساء.

شئون الخدم وزواج هذه الآنسة أو تلك الأرملة وهذا الخطيب الثرى المنتظر لهذه الفتاة وخاتم الخطبة ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى، والسكنى فى الزمالك والأتومبيل الجديد عند فلان «بك» وهذه الخياطة البارعة وذلك القماش الجدد الخ.

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة. واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس. فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم ببحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية أو لهيئة الأمم المتحدة أو لفلسفة برتراند رسل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة فى الهند ومصر أو لمعنى الدين أو برامج المدارس. وكأنهن لم يكن يقرأن الجرائد فضلا عن الكتب.

ولكن كان فى هذا الوسط فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض فى أحد المستشفيات بالقاهرة وكنت عندما أقعد اليهما وأتحدث أحس أنى أزاء شخصيتين عاليتين. فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالية أخرى غير المنزل والخدمة والطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجديد.

وقد استمعت إلى حديث أحديهما عن المرضى والأمراض واختلاف الناس فى استقبال الموت أو الحكم بالموت عندما يعرف المريض أن سرطانا قديما قد نبت وتفرع فى جوفه.

ووصفت إلى إحداهما كيف رأت رجلا قبيل النزع وكيف خففت عنه.

وكنا فى سيدى بشر وهى تبعد عن الاسكندرية بنحو عشرة كيلومترات فاقترحتا على أن ننهض ذات صباح ونسير على الأقدام بحذاء الشاطئ إلى الاسكندرية.

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أنى إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء... وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زاد ذكاءهما وكوناشخصيتهما. ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن اللائى يعشن فى البيت وينتظرن الزوج ثم يتزوجن ويقصرن إهتماماتهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء لما كانت لها هذه الشخصية.

والذكاء ينهض على أساس طبيعى ولكنه يربى بالمجتمع. ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكابد من كسب أو خسار ونصادف من أخطار بل بما نرتكب من أخطاء نتعلم وننمو ونزيد حكمة. والمرأة كذلك لن تكون إنسانا حكيما إلا إذا مارست جميع الأعمال التى يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم.

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نضجها. وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطا عليها فى هذه الحال ويلتذون هذه المرتبة أو الميزة العالية لهم عليها. ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تتنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت نورا.

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربياننا وإنما الذى يربينا هو هذا المجتمع الذى نختلط به ونصطدم بمشكلاته. ونحن لا

نستقطر الحكمة وننضج النضج الفلسفى إلا بعد أن نخطىء ونصيب ونخسر ونكسب ونتساق ساعة الهوى ثم نفيق عقبها سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا فى حرية واستقلال بلا خوف من سلطة أو تقاليد.

وهذه الحكمة التى ننالها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التى نتوسل نحن بها أى بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار.

وهذه الصورة الجديدة التى رسمها لنا ابسن فى نورا قد تحققت فى المرأة الأمريكية إلى أبعد حد، وكذلك تحققت إلى حد ما فى المرأة الإنجليزية والاسكندناوية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب ولم يعد الرجل يعولها. وقد أصبحت شخصيتها قوية جلية تواجه الدنيا فى شجاعة وتحترف الحرف التى ترقيها وتنبه ذكاءها وتفتل عضلاتها.. وهى في كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية فى الزواج والحمل والولادة.

وقد جدت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة. ذلك أن وفرة الآلات الميكانية فى البيت الأمريكى أغنت المرأة عن العمل فى الطبخ والغسل. فزاد فراغها الذى احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت. ومعنى هذا أن التغير فى الانتاج المنزلى قد أحدث تغيرا فى أخلاق المرأة. وحققت هذه الآلات الكهربائية دعوة ابسن من حيث لم يكن ينتظرها.

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التى تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب وتستقل بعواطفها وترسم بيدها خارطة حياتها وتقرأ وتناقش

وتكسب وتخسر و تصيب وتخطىء، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة، نقول أن المقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية فى الأقطار الجنوبية مثل أسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لايزال المطبخ يجرى على تقاليده وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا بحيث يقرر لها أو يكاد يقرر لها مصيرها، هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة، باعتبارها إنسانا عاقلا مستقلا على هذه المرأة الأوروبية الجنوبية لاتزال مقيدة بالتقاليد.

إن العمل والكسب والاختبار والاصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربى المرأة الأمريكية، فى حين أن الأنزواء فى البيت قد قيد النمو الذهنى للمرأة الأوروبية الجنوبية.. ولا نذكر المرأة الشرقية.

فردريك نيتشه، أو فتنة الشباب

إثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة. أولهما فيسمان الذى غرس فى ذهنى أن الصفات المكتسبة لا تورث. واحساسى الآن نحو هذا الرجل هو البغض. أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى فافتننت به سنوات قبل أن تخلصت منه. وإحساسى نحوه هو الحب.

وقد عرفت نيتشه فى ١٩٠٩ وكنت منغمسا فى نظرية التطور.

وكان «تنازع البقاء» و«بقاء الأصلح» و«الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب» من المعانى التى أقبلها فى صمت وتسليم. وهذه المعانى جميعها تنقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف.

وهبط على نيتشه كما لو كان وحيا أو كشفا، نثر ساحر كأنه أبيات من الشعر. وخيال يرتفع إلى آفاق المستقبل. وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشىء رهبة وجزعا أو تنفضه حماسة وطربا. ثم إلى ذلك فلسفة تعلو على برود المنطق وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التفاؤل. وفى كل ذلك ارتباط بالتطور.. «إنى أعلمكم علم السبرمان أو الإنسان إلا على

ما هو القرد إزاء الإنسان؟ أضحوكة أو خزي. وكذلك يجب أن يكون الإنسان إزاء السبرمان: أضحوكة أو خزى.. إنما الإنسان معبر أو جسر يصل بين القرد والسبرمان. سوف يكون السبرمان إزدهارا وخيرا وتعبيرا نهائيا للأرض. استحلفكم أن تكونوا أمناء للأرض. وأن تكفوا عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها آمالا ومكافآت. إن عليكم أن تضحوا بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوما ما بالسبرمان... الإنسان شيء يعلى عليه فماذا فعلتم كى تعلوا عليه»؟

كلمات رائعة كان وقعها فى نفسى، وأنا حوالى العشرين، وحيا أو كشفا فتعلقت به. وكتبت عنه مقالا فى مجلة المقتطف فى ١٩٠٩ بعنوان «نيتشه وابن الإنسان».

وقد كانت نظرية التطور جديدة فى أوروبا وكانت تكشف عن صورة وحشية للتطور، وقد استلهم منها أعداء المسيحية برهانا جديدا يقيمونه لنقضها وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل يوضحون زيف الأساطير فى الدين. ولم يكن يجرؤ أحدهم على القول بأن الأخلاق المسيحية ليست هى الأخلاق المثلى أو إنها تؤخر البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها. ولكن نيتشه لم يبال الأساطير أو المعجزات إذ عمد إلى دعوة المسيحية التى امتازت بها وهى الرحمة وحب المساكين والضعفاء فحمل عليها ووجد فيها ميدانا لبحث القيم والأوزان التى يعيش بها الأوروبيون المسيحيون فقال إن هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء «الصقور» وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة وهو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور. فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء كما أن بينهم صقورا قوية تستحق البقاء. وهو فى هذا المنطق لا يذكر داروين مع أن القارىء لمؤلفاته لا يتمالك أن يذكر نظرية التطور.

ونيتشه أديب من الطراز الأول. وهو أيضا لغوى وفيلسوف. ومن هنا سحره الذى لا يقاوم. فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب، وهو يرجع بحثه إلى التاريخ.

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعارا والقوة مذهبا وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة virture ومعناها الفضيلة. فإنها مشتقة من كلمة vir ومعناها الرجولة. فالفضيلة كانت عند الرومانيين صفة الرجولة أو أهم خصائصها. ولكن المسيحية جاءت فى زعم نيتشة فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفا زريا نرى نتائجه فى شعوب أوروبا الحاضرة حيث تتفشى الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمى كل مريض ونعنى بعلاجه.

ولد نيتشه فى ١٨٤٤ ومات فى ١٩٠٠. وكان أبوه قسيساً، كما كانت أمه امرأة متدينة. وقد هيىء لأن يدرس فى كلية دينية كى يكون قسيسا ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها. ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقى فى أوروبا، ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترمى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة. وهو هنا بالطبع غير ديمقراطى، بل عدو الديموقراطية.

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق «القطيع»، كما يصف سواد الشعب.

ومما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به، وقد أهدى مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسولينى. وكلاهما، أى هتلر وموسولينى،

كان عدو الديمقراطية. ولكننا لا نعنى من هذا القول أن نيتشه يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن. فإن فيه أحيانا من سمو الفكرة ونضج الحكمة ما يجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين.

ونحن نضحك منه حين يقول «اللحادون والمسيحيون والبقر والنساء والانجليز وسائر الديمقراطيين ينتمون إلى أصل واحد».

ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول: «الزواج هو اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين».

وقوله: «لا يجب فقط أن نتناسل إنما يجب أن نتناسل إلى أعلى».

وهذا أحسن ما قيل عن الزواج، فإنه رفعه من معانى السعادة واللذة إلى معانى التطور والتضحية. أى يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدى إلى الرقى البيولوجى وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة.

وحملة نيتشه على المسيحية تتساوق مع فلسفته. فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة، فى حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة. أو يمكن أن يقال أن المسيحية تنشد مجتمعا أفقيا يتساوى فيه الجميع بل يمنع التفوق لبعض أفراده ويعيد الجميع إلى حال سواء من التوسط. ولكن نيتشه ينشد مجتمعا عموديا يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا.

وعنده أن «الشرف» وثنى رومانى ارستقراطى. أما «الضمير» فمسيحى يهودى ديمقراطى. وأن أوروبا لهذا السبب مهددة ببوذية

جديدة تنكر فيها الحياة. ومن أقواله: «الغريزة هى أسمى أنواع الذكاء التى اكتشفت إلى الآن».

«ونصيحتى إليكم أيها الاخوان هى: كونوا قساة صلابا».

«علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا، من جيراننا ونحب أبعد الناس عنا».

«تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسى لوجود الحقوق».

«لصغار الناس صغار الفضائل ولكننى لا أعرف ما حاجتنا إلى صغار الفضائل».

«ليس للأنانية قيمة فى الأرض أو فى السماء. وجميع المسائل العظيمة تحتاج إلى حب عظيم».

«الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العف عن الانتقام».

«ما هو الشىء الحسن؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة، أى إرادة القوة، أى القوة ذاتها فى الإنسان».

«وما هو الشىء السىء؟ هو كل ما ينشأ من الضعف».

«عيشوا فى خطر، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف. ابعثوا بسفنكم إلى بحار مجهولة».

«لأنك جعلت الخطر حرفتك لذلك أدفنك بيدى».

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقا بمقدار ما يقدم لنا أشعارا أو مذهبا وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من الضعف ونقسوا على أنفسنا وعلى غيرنا. ومع أننا نحس

من اتجاهاته الفكرية أنه على التصاق واعتناق لمذهب داروين فى التطور البيولوجى، فإن الميزة واضحة فى أنه لا يطلب سبرمانا للمستقبل بمقدار ما يطلب منا أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة وعلى مقاطعة للأخلاق المسيحية.

وإنسان المستقبل (السبرمان) الذى يرتفع فوقنا بمقدار ما نرتفع نحن فوق القردة، لا يحتاج لإيجاده إلى القسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعى للزواج والتناسل. وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة.

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنسانى بالتعاون، ومنطق نيتشه هو المنطق الفطرى بالتنازع.

وقسوة المبادىء الامبراطورية، والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء. هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نتأمل ونتعمق مؤلفاته. ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات، كما يتضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم.

* * *

والقارىء لنيتشه فى حملته على المسيح يحس وجاهة الرأى الذى يقول به أندريه جيد، وهو أن نيتشه يغار غيرة شخصية من المسيح. فإن كلماته تحمل أحيانا بذاء أكثر مما تحمل نقدا، وهو فى كتابه «هذا ما قال زرادشت» يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح.. بل نحس ونحن نقرأ هذا الكتاب أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات

المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية. ثم يزيد على هذا فيحاكى أسلوب الإنجيل. فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم كذلك نيتشه قد جاء كى يجادل «الطيبين العادلين.. لأن عقولهم مقيدة فى سجون ضمائرهم» ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجبل حين خاطب المسيح تلاميذه ولكن مع الفرق فى العبرة والدلالة. إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والأخاء البشرى فى أبوة الله، يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت. ولنيتشه كما للمسيح خلوته واستيحاؤه وله أيضا «العشاء الأخير» الذى يقول عنه بلسان زرادشت «هذا العشاء لتذكرونى».

ثم تزداد الغيرة إلى حد الجنون فيقول: «ما هى أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا؟ أليست هى قول ذلك القائل: «ويل لكم أنتم الذين تضحكون فى هذا العالم». وهو هنا يشير إلى المسيح ثم يحاكى ويناقض بما فى قوله على لسان زرادشت:

«صحيح أتكلم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات (وهنا يشير زرادشت إلى السماء) ولكننا لا نرغب فى أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالا، ولهذا نحن ننشد ملكوت الأرض».

بل يتحدث فى جنون فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلا ويقول إنه لو كان قد عمر طويلا لنقض آراءه التى كان قد قال بها، ثم يقول:

«حقا لقد مات هذا العبرانى

«لم يكن قد عرف فى حياته سوى دموع العبرانى وأحزانه، مع كراهة الطيبين والعادلين، هذا المسيح العبرانى، ثم إذا ببيداء الموت تطويه.

«ولم يعش فى البيداء بعيدا عن الطيبين والعادلين. لعله لو كان قد فعل لكان قد عرف كيف يعيش. وكان عندئذ يحب الأرض والحياة أيضا.

«ثقوا يا إخوانى أنه مات دون أن يعمل، ولو أنه كان قد عاش مثلما عشت وعمر مثلما عمرت لنقض ما كان قد قاله، أجل أنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله.

«ولكنه لم ينضج، وحبه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج، وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة».

* * *

إن كثيرا من أقوال نيتشه يوهم الهوس إن لم نقل الجنون. ومما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون مطبقا إذ كان فى الدور الأخير من السفلس. ولعل هذا الجنون كان قد تسلل وئيدا قبل أن يطبق عليه. ولعل أيضا بعض يعزى هذيانه إلى هذا المرض.

على أن كثيرا من هذا «الهذيان» لا يزيد أن يكون إسرافا وتوترا فى التعبير.

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشة بدعوى الهوى أو الهذيان أو الجنون فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فليسوف أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل وليس ثم مفر من هذه المواجهة.

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد

الصفات العالية كالصحة والقوة والذكاء. فمادام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس أن يؤسسوا المستشفيات لمعالجة المرضى؟ وهل من الخير أن يباح الزواج للأبله والمغفل والأشوه؟ ثم مادمنا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض من الذكاء قبل مليون سنة، حين كنا والحيوان سواء، فلماذا لا نعمل فى إطراد التطور كى نزداد صحة وقوة وذكاء؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالفطرة، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا تعرف دواء لمعالجة المرضى. وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات. ثم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى، وسادتنا أخلاق الرحمة والأخاء والتصدق فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش فى الغابة، ثم هم مع ذلك يتزاحمون ويتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة فى العناصر البشرية.

وصيحة نيتشة هنا: عودوا إلى شريعة الغابة، عودوا إلى تنازع البقاء هى صيحة تستحق النظر والتأمل، ولا يغنى فيها القول بأنه كان مريضا بالسفلس أو أن هذا القول هذيان، إذ ليس هذا هذيانا.

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوراثة، وهى القدر الذى يعين لنا حظنا فى الحياة بما ورثنا من كفايات من آبائنا. ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيرا من هذا الرأى وأدحض بعض الأركان لهذا القدر فإن الوراثة لاتزال تحتل جزءا كبيرا من التفكير البيولوجى، وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط فى التغيير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التى تعينت لها صفات واستقرت فيها

خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص فى هذه الوراثة.

وقد ظهرت «اليوجنية» أى علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة. وهى إلى الآن يوجنية سلبية بمعنى أن الأمم المتمدنة تعمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا. وقد عمد هتلر إلى شىء من اليوجنية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب. وذلك أيام النازية. وهذا كله من وحى نيتشة كما هو من التعاليم التى فشت عقب نظرية التطور.

وقد كان لكتاب البيولوجى فيسمان «الجرثومة المنوية» أكبر الأثر فى الإسراف فى الإيمان بالوراثة وقد أفسد هذا الرجل ذهنى بل أخلاقى مدة طويلة.

ولكن رويدا رويدًا تغيرت النبرة فى التطور، فبدلا من القول بتنازع البقاء فى الطبيعة أثبت كوريتكين أن التعاون، وليس التنازع، هو شريعة الغابة. ثم انتهينا فى السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحى نباتا أو حيوانا أو إنسانا، وأن هذا التغير الوسطى يعود فيثبت بالوراثة.

ففى ضوء التطورات وفى تجارب الوسط لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشة بأن نكون قساة لا نرحم. فالتطور يصيح بالتعاون والوسط يستطيع أن يغير ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى الذى يحقق الارتقاء البيولوجى.

* * *

كثيرا ما أعود إلى قراءة نيتشة لا لأننى مقتنع بمنطقه ولكن لأنى أجد سحرا على الدوام فى تعبيره وأحيانا فى تفكيره، أنظر إلى ما يقوله عن الرحمة:

إن الرحمة تناقض الشهوات الحية المنعشة التى ترفع نشاط البشر وتزيد إحساس القوة، إذ هى تكرب وتغم. ونحن نفقد حيويتنا حين نمارس الرحمة، وما نفقده من قوة وحيوية، بسبب الألم مثلا يزداد ويتضاعف بالرحمة حتى ليصير الألم معديا بالرحمة. وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى أن تفقد الحياة ذاتها، وإذا شئت برهانا على ذلك فاذكر هذا النصراني الذى انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب.

«وأيضا تفسد الرحمة شريعة التصور التى تقول ببقاء الأصلح، وهى أى الرحمة تستبقي ما كان يجب أن يموت كما تعمل لمصلحة الذين حكمت عليهم الطبيعة. وهى تضفى على الحياة لونا قاتما بعدد الناقصين الفاسدين الذين تعولهم وهى تضاعف التعس كما تحافظ عليه. وهى الأداة الأولى لترويج الانحطاط، وهى تؤدى إلى الفناء، إلى إنكار الغرائز التى تنبنى عليها الحياة..».

وليس شك أن فى هذا الكلام هذيانا كثيرا، ولكنه كان هذيانا يسحرنى لأول وقعه فى نفسى وأنا خام أخضر فى سن العشرين. كان يسحر وينبه، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق العامة والتقاليد الموروثة التى كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين أو مستطلعين.

أو أنظر على ما يقوله عن الحياة.

«إنما الحياة فى صميمها امتلاك واحتياز وإيذاء ومحق للضعفاء والعاجزين عن التلاؤم والتكيف. وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل».

وهذه المقتبسات التالية هى صورة المجتمع والحضارة كما يراهما ينتشة إذ يقول:

«إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة. وهى سنة لا تستطيع أية قوة بشرية أن تتغلب عليها. ففى كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معانى الكمال والسيادة. وتتألف الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهنى على سواد الأمة. وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلى أما الطبقة الثالثة فمن المتوسطين.

«وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا العالم كما هو ويستخدمونه بما فى مستطاعهم.. وهم يجدون سعادتهم فى تلك الشئون التى تدمر من هم دونهم: فى الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم فى حكم أنفسهم. والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة. وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها. وهم يرتضون بتحمل الأعباء التى تسحق غيرهم إلى الموت. وهم زبدة الناس وأكثرهم حبا وفرحا. ويحكمون عفو طبيعتهم كما أنهم ليسوا أحرارا فى أن ينتظموا فى الصف الثانى.

«أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن رجال الحرب والاشراف والملك، وفوق هؤلاء، القضاة حماة القوانين، وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين فإنهم ينفذون أوامر الطبقة

الأولى ويريحونها من الأعمال اليدوية أو الخشنة التى يحتاج إليها الحكم.

«وفى أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم. ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة فى الأمة أو دواليب تدور ووظائف تؤدى. والسعادة الوحيدة التى يستطيعها أفراد هذه الطبقة هى قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط. و التخصص أو التفوق فى تدريب معين هو غريزتهم.

«ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشرى. إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد

«من من الناس أكرهه أكثر من غيره؟

«أكره ذلك الاشتراكى الذى يهدم الغرائز السليمة عند العامل بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسودا ويعلمه الإنتقام..»

«أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم فى تفاوت الحقوق».

* * *

مات نيتشة فى ١٩٠٠ أى دفن فى هذه السنة ولكن الواقع أنه كان ميتا منذ حوالى ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه. وهو مريض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه. ولم يكد العالم المتمدن يحس بوجوده إلا بعد وفاته. وكان الإحساس عندئذ حادا. فمنذ ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ ويعلو نيتشة على جميع المفكرين الأوروبيين بل مشكلة الضمير الأوروبى بل مشكلة السياسة الأوروبية سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون.

وهو لو كان فيلسوفا فقط يكتب بالرطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين لما كان خطره كبيرا لكنه كان شاعرا يتغنى ويترنم ولذلك كان ولايزال يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد فهو غواية وفتنة كما هو نور ومعرفة. هو جنون وعقل.

وأكاد أقول عندما أجد شابا يقرأ نيتشة: حذار. لا تقدم. إنك على طرف هاوية. وقد تنزلق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه. لا. بل يجب أن تقرأ نيتشة لأن أقل ما فيه إنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ويحول بينك وبين التسليم المطلق للعرف والعادة إذ هو قوة تحريرية عظمى ولكنه أيضا يحملك تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العقلية التكهنية فى الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى فى الفلسفة ليست نظاما منطقيا يقول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة وإنما هى فى تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان وفى التكهن بالمستقبل البشرى والاستعداد له. وميزة نيتشة هنا أنه استطاع أن يقنع أوروبا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى.

كتب نيتشه حوالى ١٨٨٠ إلى أخته يقول:

«عدينى أننى عندما أموت لن يقف حول نعشى سوى أصدقائى ولن يكون حوالى أحد من الغوغاء المتسائلين. وأعملى على ألا يلقى قسيس على قبرى أكاذيب وأنا عاجز عن حماية نفسى. ودعينى انحدر إلى قبرى وأنا وثنى شريف».

ومات فى ١٩٠٠ مغمورا لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة ولكنه بعث بعد موته. إذا أصبح الضجة الكبرى والصيحة العالية فى جميع الأوساط المثقفة. ولا يزال دويا عاليا واسمه رمزا للتساؤل.

وفى نفسى له حب وأسف وإقبال صدود.

دستوفسكى ... ذكاء العاطفة

كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصي جعلنى فى مستقبل عمرى أتأنق وأحجم عن قراءة تلك القصص الانجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوجول وتيشهوف وترجنيف. والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيث الإنجليزى هو وثبة إلى الحضيض يفزع منها الإنسان. والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوروبا أو أمريكا هو انهيار فادح.

وأحياناً أحاول أن أعلل حبى لهؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر. وأن الوسط الاجتماعى الأوروبى الأمريكى كان يجرى على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوروبى أن يستمرىء هذا المجتمع الروسى القديم وما حفل به من فوضى وفاقة واستسلام وركود. هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسى على الآداب الغربية لا يكفى.

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقا. فإنى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقا الأوروبية الكنسية والمسرحية، فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية بل العداء للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية المخنثة. فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين. بل إنى أؤثر عليها «موالاً» من تلك المواويل التى يغنيها فلاحونا، فإن فيه أحياناً من الصدق والرجولة ما يبعث على الاحترام فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخنث. ولعل ميزة أوروبا علينا فى الموسيقا أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا. وقد كان رقصاً جنسياً مخنثاً، فسقطت مكانة الموسيقا والأغانى فى نفوسنا.

* * *

ولد دستوفسكى فى ١٨٢٢ ومات فى ١٨٨١. وكان مريضاً طوال حياته تنتابه نوبات من الصرع. وقد أخرج قصته الأولى «المساكين» فى ١٨٤٦ ووثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ وفى ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً بعد ذلك باسم «ذكريات من بيت الموتى». وبعد سنوات أخرى فى الجندية والسياحة استقر على التأليف القصصى. فأخرج «الأخوة كرامازوف» وهى الأولى بين قصص العالم جميعها. وأخرج أيضاً قصة «الجريمة والعقاب». وقد بعثتنى حماستى لها، أنى فى ١٩١١ ترجمت منها نحو نصفها ثم طبعت الربع بهذا الاسم ولم أتمم الترجمة.

وتتسم قصصه بحنان ورقة يشيعان فى نفوسنا إحساس الدين، وهى جميعها دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ولذة التضحية وارتفاع عن الدنايا المادية ونحو ذلك. وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف.

* * *

ولنذكر شيئاً مما وقع له ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر فى فنه.

ففى يوم ٢٢ أبريل من ١٨٤٩ألقى القبض فى بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى. وكانت التهمة الخطيرة التى اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فورييه.

وكان فورييه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع. وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيماً. ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لاتزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى. وقيل أن هؤلاء الثلاثين المجتمعين فى بطرسبرج قد تآمروا على ترجمة كتاب فورييه هذا. ومما زاد فى هذه «المؤامرة» الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوبخه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر.

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر حكم عليهم بالإعدام ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ. وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبورج ثم ألبس المتهمون جلاليب بيضاء وعلى كل منهم طرطور. وأخرجوا فى الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر والثلج يغطى

الرأس. ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كَل منهم تقبيله حتى يغفر لهم فى العالم الآخر. ووقف ستة عشر جنديا يحملون البنادق وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية. ثم أمر الجنود بفتح الأزندة استعداداً لإطلاق النار.

وفى هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبريا أربع سنوات.

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبرياء وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى:

قلعة بطرس وبولس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩.

أخى.. صديق الحبيب. كل شئ قد تم وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات فى القلعة (أظنها قلعة أورنبورج) وبعد ذلك التحق بالجيش جندياً. وفى هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض فى سميونوف. وقرأوا علينا الحكم بالإعدام. ثم أمرونا بأن نلثم الصليب، ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض.وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى يضربوا بالبنادق. وكان ترتيبى السادس. وكان النداء على ثلاثة كل مرة، وكنت أنا بذلك فى الفرقة الثانية فلم يكن باقيا لى من الحياة سوى دقيقة. وقد ذكرتك أيها الأخ أنت وأولادك. وفى هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبى وعرفت عندئذ مقدار حبى لك. وقد تمكنت من أن أقبل بلاشياف ودوروف وكانا واقفين بجانبى وودعتهما. وأخيراً نفخ فى البوق وأعلن الأمر بالرجوع وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود.

وقد أبلغت يا أخى الحبيب بأنهم سيرسلونك اليوم أو غداً وقد طلبت رؤيتك ولكنهم أخبرونى بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لى بالكتابة إليك فأسرع وابعث لى بالرد وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام. فقد نظرت من نافذة العربة التى حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت فى الطريق جمهوراً كبيراً وخشيت أن يكون من رأونى قد أبلغوك وآلموك بذلك. ولكن الآن يمكنك أن تهنأ بشأنى. يا أخى. لا تظن أن الحكم قد هدنى أو غمَّ علىَّ. فالحياة فى كل مكان هى الحياة، وهى فى داخلنا وليست فيما هو خارج عنا، وسيكون قريباً منى أناس وسأكون رجلا بينهم وأبقى كذلك إلى الأبد. ولن يهن قلبى أو تفشل عزيمتى أمام المصائب. وهذا فى اعتقادى هو الحياة أو الواجب فى الحياة. وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمى ودمى. أجل هذا صحيح. فهذا الرأس الذى كان يبتكر ويعيش فى أسمى الحياة الفنية، والذى حقق أسمى الحاجات الروحية واعتادها ـ هذا الرأس قد قطع من عاتقى ولم يبق عندى سوى الذكريات والخيالات التى اخترعها ولكنها لم تتجسم فى بعد. وإنى لأعرف أنها ستمزقنى. ولكن مايزال باقياً لى قلبى وهذا اللحم والدم الذى مايزال قادراً على الحب والألم والرغبة. ولا تنس أن هذه هى الحياة، أجل: مازلت أرى الشمس، والآن وداعاً يا أخى ولا تحزن من أجلى.

والآن هلم إلى الماديات. إن كتبى (باستثناء الكتاب المقدس الذى ما يزال عندى) وعدة أوراق من مخطوطاتى وتخطيط درامة وقصة (وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل) قد أخذت كلها منى والأرجح أنك ستتسلمها.

وقد تركت معطفى وملابسى فيمكنك أن تأخذها. والآن يا أخى أظن أننى سأمشى مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود. أخى الحبيب: إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلىّ بأسرع وقت. فأنا أحوج الآن إلى المال منى إلى الهواء (لغرض خاص) وابعث لى ببضع كلمات. ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسنى. وهذا كل ما أريده. وأنا أعرف أن على ديونا ولكن ماذا أفعل؟

قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسوننى فلعلنا نلتقى يوماً ما. أخى: أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك وأن تعيش فى هدوء ويقظة وأن تفكر فى مستقبل أولادك.. عش عيشاً إيجابياً. إنى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط. ولكنى لا أبالى بذلك. أخى: لقد كابدت من الحياة الشئ الكثير حتى ما يكاد شئ يخيفنى الآن فى العالم. فليكن ما هو كائن. وسأكتب إليك فى أول فرصة. وأبعث لأسرة مايكوف بتسليماتى وتحياتى وأشكر لهم اهتمامهم بحظى. وقل بضع كلمات حارة يمليها عليك قلبك ليوجينيا بتروفنا. فأنا أدعو لها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بجميلها. واضغط يد ينكولاى أبولو نوفتش وأبولون مايكوف وجميع الآخرين. وأبحث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره. وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى. وقبل أخى كوليا، واكتب خطاباً إلى أخى أندريه وأخبره بكل شئ عنى واكتب لعمى وعمتى وأفعل ذلك بإسمى. وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعو لهن بالسعادة.

وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل. لا تهمل العناية بنفسك بل عش وابق حياً حتى نلتقى ثانيا فلعلنا نتعانق يوما ونذكر شبابنا ذلك الوقت الذهبى، ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزقها الآن من قلبى ودمى كى أدفنها ...

هل يمكن حقاً أنى لن أتناول القلم بيدى مرة أخرى؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شئ أكتبه إذا كتبت شيئاً. وارباه! كم من خيالات عشت فيها أو اخترعتها ستموت وتنطفئ فى دماغى أو تتمزق وتسير فى دمى كالسهم. أجل. إذا لم يسمح لى بالكتابة فأنى سأموت. وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدى قلم..

اكتب لى كثيرا واكتب بالتفصيل والإسهاب وأذكر لى حقائق - حقائق كثيرة. وفى كل خطاب أكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد إلىّ الرجاء والحياة. آه لو تعرف كيف أحيتنى وأتعستنى خطاباتك التى أرسلتها إلىّ وأنا فى هذه القلعة وقد كان الشهران والنصف الماضية حين منعنا من كتابة الخطاب أو تسلمها من أشق ما كابدته، وقد كنت مريضاً.

ولما أهملت أنت إرسال النقود إلىّ ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود إنك أنت فى حاجة شديدة .قبِّل الأطفال مرة أخرى فإن وجوههم الحلوة الصغيرة لا تغيب عن بالى، لتكن لهم السعادة!وأنت يا أخى كن سعيداً.. كن سعيداً.

ولكن لا تحزن وبحبك الله لا تحزن لأجلى! وثق أنى لم أهن. وتذكر أن الرجاء لم يهجرنى وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جندياً فينقضى سجنى. وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما. لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة وعشت هذه المدة بهذا الخاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة، وها أناذا حى مرة أخرى.

وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد أو أسأت إلى أحد، فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة. وليس في نفسى مرارة أو نقمة على أحد وأود لو أعانق فى هذه اللحظة كل واحد من أصدقائى السالفين. وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبابى الأعزاء قبل الموت وخطر ببالى فى ذلك الوقت أن خبر إعدامى سيقتلك. ولكن استرح الآن فإنى مازلت حياً. وسأعيش راجياً بأن أعانقك يوماً ما. وهذا هو كل شئ فى بالى الآن.

ماذا تفعل، وبماذا فكرت اليوم؟ وهل عرفت شيئاً عنا؟ وماذا كان مقدار البرد اليوم، آه ما أشوقنى إلى أن يصل خطابى هذا اليك بسرعة. وإلا فإنه إذا تأخر فإنى سأبقى أربعة شهور بدون خطاب منك. وقد رأيت الظروف التى أرسلت فيها النقود لى مدة الشهرين الماضيين وكان عنوانى مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط.

وعندما ألتفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضاع عبثاً وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش، وكيف أنى لم أقدر الوقت حق قدره وكيف جنيت على قلبى وذهنى، أحس بأن قلبى يسيل دماً، أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصراً طويلاً من السعادة.

آه لو عرف الشباب..! والآن هذه حياتى تتغير وأنا أولد من جديد فى شكل آخر.. أخى: أقسم لك أنى لن أفقد الأمل وسأصون روحى وقلبى فى الطهارة وميلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالى الماضية. وهذا كل رجائى ـ وهذا كل عزائى.

إن حياة السجن قد قتلت فى جسمى مطالب اللحم التى لم تكن كلها طاهرة، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً. أما الآن فالحرمان لا قيمة له عندى، ولذلك لا تخش علىّ من المشاق المادية وتحسب أنها ستقتلنى كلا.. لن يحدث هذا.

وداعاً.. وداعاً يا أخى.. إنى أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة، تذكرنى ولكن بلا ألم فى قلبك فأرجوك ألا تحزن لأجلى، لا تحزن. وفى الخطاب الآتى سأخبرك بما يتم لى. وتذكر عندئذ ما أخبرتك به. لا تعش جزافاً دائماً. دبر حياتك ورتب حظك ونفكر فى أولادك، آه. لو أراك! آه لو أراك. وداعا، إنى أنزع نفسى الآن من كل شئ أحببته. وهذا النزع مؤلم. ومن الموجع أن أقطع نفسى نصفين وأشق قلبى شقين وداعاً.. وداعاً. ولكنى سأراك، أنا واثق، أنا واع. فلا تتغير، وأحببنى، ولا تدع ذاكرتك تبرد.. وذكرى حبك ستكون أحسن شئ فى حياتى ومرة أخرى وداعاً، وداعاً. وداعاً لكم جميعاً.

أخوك فيدور دستوفسكى

لما قبض على أخذوا منى كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما. فهل لك أن تطلب الباقى لنفسك؟ ولكن لى طلبا، وهو أن أحد الكتب يحتوى على مؤلفات فاليريان مايكوف. وهو مقالاته الانتقادية. وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا. وكانت تعدها كنزاً. وقد أقرضتها لى. ولما قبض على طلبت من الشرطى أن يرد إليها الكتاب وأعطيته عنوانها. ولا أعرف إذا كان قد رده. اسأل عن ذلك لأنى لا أحب أن أحرمها هذه الذكرى وأخيراً وداعا. وداعاً.
أخوك: ف دستوفسكى.

على الهامش: لا أعرف هل أمشى أو أركب فرسا. وأظن أنهم سيركبون الخيول. ربما قبل يد أميلى فيدوروفنا وقبل الصغار وأذكرنى عند كريافسكى.. اكتب لى عن القبض عليك. وحسبك والإفراج عنك.

* * *

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح الدم من نفس دستوفسكى.

تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء معاً. فإن بطل «الجريمة والعقاب» طالب فى الجامعة يتأمل ويفلسف، ويتساءل! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقترة التى لا تزيد قيمة حياتها على حياة برغوث؟ أليس هو أولى بثروتها ينفقها فى الخير والنفع.

ثم يقتلها. ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه فى النهاية إلى البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبريا. ويرضى لنفسه هذا المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس.

وسائر قصصه على هذا الغرار إحساس فوق الذكاء. وخيال فوق العقل. وقصصه تكاد جميعا تخلو من العقدة إلا القليل جدا: وفى النهاية نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر. فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو غايات من الفن والشعر. وهذا هو ما يجب أن يكون. لأن القصة هى التفسير الخيالى للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة. فالفتاة التى تبيع عرضها كى تنقذ إخوتها من الجوع، والسكير الفانى الذى يتعلق بالدين

ولايزال يؤمل الآمال، والراهب الذى يحب ولكنه لا يسقط، والشاب الذى يملأ الشرف صدره فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه فى غرارة وسذاجة مشروعا للخير فلا يجد سوى الاستهزاء، والأبله الذى يؤمن بالعلم فيرتكب جريمة الاغتيال استنادا إلى العلم... وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية.

كل هذا يقع فى قصص دستوفسكى. وهو بفرط حنانه وجمال خياله، قد يناقض العقل والمنطق ولكن كما كان يناقضه غاندى أو تولستوى.. وقد كسبت من دستوفسكى أكثر مما كسبت من غيره وهو ذلك الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى.. وذلك أننا إزاء الدين والأدب والموسيقا لا «نعرف» وإنما نحس. وقد قلت فى أول هذا الفصل أن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوروبيين. والحق إنى قرأت برناردشو، وولز، وديكنز، وأناطول فرانس، وأندريه جيد، وكثيرا غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعيا أكثر مما كان أدبيا. وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس. وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم، حتى مكسيم جورجى، أجد أنهم ينشدون الدين. فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جداً. وقد استطاع دستوفسكى وتولستوى أن يجعلا المسيحية دينا وأدبا معا بل إنما أبرزا الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم.

كان دستوفسكى يكره الشبان الثائرين على القيصر وكثيرا ما نجد فى قصصه ثائرا أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من

عقائدهم. ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها وإنما كان يكره هؤلاء الشبان لإيمانهم بالمادية الأوروبية ودعوتهم إلى الالحاد. بل أنه كان يكره أوروبا أيضا لهذا السبب. وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوروبية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورجنيف إلى إعتناقها.

وعندما نتعمق أقوال دستوفسكى لا نتمالك الإحساس بأنه يكره العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها وأن فى نفسه شوقا ملحا إلى أن يعيش الناس فى إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التى يجب أن تكون الأساس الذى تنبنى عليه الأخلاق.

وقد عجز دستوفسكى عن أن يفطن للحقيقة الأوروبية البازغة وهى أن الأوروبيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر فى استبدال الرؤيا البشرية للرقى والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة. وأن الإحساس الدينى البشرى الجديد، على الرغم من أنه لايزال ضعيفا، يجد أنصارا أقوياء يسلكون فى حماسة وحب للبشر ويخدمون ويضحون للأنسانية.

ولكنه فطن إلى أن علما بلا دين هو دمار بشرى عام. بل نستطيع أن نقول أنه بصر بقوة العلم الطاغية فى القنبلة الذرية التى يخرج بها طيار يشرب كأسا من الكونياك فى نزق ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان فى ثانية ويعود ضاحكا إلى معسكره كما حدث فى هيروشيما فى أغسطس من ١٩٤٥.

بعد أن قضى دوستوفسكى مدة عقوبته فى سيبريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة فون ويسين خطابا جاء فيه:

«ومع ذلك فإن الله يمتعنى أحيانا بلحظات من الهدوء الكامل وفى هذه اللحظات أجد الايمان الذى يتجلى لى فيه كل شىء فى وضوح وقداسة. وإيمانى هذا فى غاية البساطة، وهو أنى أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع، وأحب، وأعقل، وأشجع، وأكمل، من المسيح. وليس هذا فقط بل إنى لأقول لنفسى فى إحساس المحب الغيور أنه لا يمكن أن يكون هناك شىء. أكثر من هذا، وهو أنه لو أن أحدا قال لى المسيح يجافى الحق، ولو أن هذا القول كان صحيحا، لأثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق».

وقصص دستوفسكى جميعا ينشد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى.

وقد وجد دستوفسكى حافزاً عظيما للاعتماد على الايمان، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار. فإنه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت، وهو موقف جدير بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معا، وواضح أنه لم ينسه بتاتا فى كل ما كتب.

وأكاد هنا أقول أن الدين ليس شيئا آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت، فإن الموت أكبر حقيقة بشرية، وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحيلها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى، فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب. وكلنا على هذه الحال بدرجات

متفاوتة ولكن فكرة الموت تتقدح فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته. وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية، وعندئذ تحس كما أحس دستوفسكى، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه. إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت، ولكن إنفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان. فكلنا عندئذ، بعد تأمل الموت، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعا.

وهذا هو إحساس المسيح، وغاندى، وتولستوى. بل فولتير وروسو وشفيتزر. بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت. أجل ان تأمل الموت هو كشف دينى. كأنى، حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو إسم أو ذكرى، لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو باشا أو بك وثرى أو فقير وهل يملك ضيعة أو أتومبيلا أو قصرا. وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية، بل أنى لأهتم به وأتأمله كثيرا عندما أعرف أنه يحب الزهور، ويحنو على الأطفال ويفرح لرؤية الشفق وتلتمع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرابته للحيوان بل للنبات.

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجدانا بالحياة، وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى فإن الحياة تصخب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر.

ومع أن القارىء لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع، هنا وهناك، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد

والغضب من المنطق العلمي وتفشي المادية الأوروبية، فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضا على التشبث بالإيمان فرارا من معانى القلق والشك والخوف، وجميعها من معانى الموت؟

قد يكون ذلك، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تذوب رحمة وحنانا واخاء وبرا حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كياننا، كما لو كانت بلسما، وترفعنا فوق أنفنا.

* * *

لا نتمالك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيضه نيتشه. وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحى الأول من إحدى قصصه. والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما نجد اشتراكا فى الأسلوب الفكرى حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه: هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئا عن السيكلوجية.

وهما يشتركان فى الكراهة للحضارة العصرية، ولكن لسببين متناقضين. فإن دستوفسكى يكره أوروبا لأنها تركت الإنجيل والمسيح، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما. فالأخلاق العامة فى أوروبا هى عند دستوفسكى أخلاق المادية العلمية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الاخاء والرحمة. ونيتشه يكره الأخلاق الأوروبية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذن يفسدون المادة البشرية، لأنها أخلاق مسيحية.

ولكنهما يتفقان من حيث أن لكل منهما رؤيا بشرية، فكلاهما حالم،

ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة وحلم نيتشة هو تنازع البقاء. وقد قال كلاهما أن البطولة خير من السعادة.

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى، والإحساس هنا هو الرحمة والحب، وكذلك نيتشه يزدرى العقل والمنطق، ويقول بالاحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم.

لقد انتهى رسكلنيكوف فى قصة «الجريمة والعقاب» الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يجحد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سيبريا، ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية ولكنه، مع سخره هذا لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاما اجتماعيا منطقيا يؤدى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر.

وحين نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر وأن فى نفس المجرم الآثم أو الشرير القارح جواهر من الشرف والبر. وهذا صحيح.

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية هم نابليون الذى يمثل عبقرية الإرادة. وابنشتين الذى يمثل عبقرية الذهن وأخيرا دستفوسكى الذى يمثل عبقرية الإحساس.

ثورو: نداء الطبيعة

سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التى تجعلنى أحب أحد المؤلفين دون الآخرين. ولكن هناك حالات من الحب تتعمق قلبى وتتغلغل فى خلايا مخى بحيث أعجز عن التحليل فلا أصل إلى الجذور التى تربطنى بأحد المؤلفين. وقصارى ما أقول عندئذ إنى أحبه كما أحب اللحن الموسيقى العظيم أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع. وأتعلق به برباط من الحنان كما لو كان هذا المؤلف أباً أو أما.

فأنى أعجب بتولستوى مثلا لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى «أنا كارنينا» هى فى الذروة من الفن. ولكن حبى له لا ينبنى على هذه القصة وحدها. بل أحرى أن تبعث هذه القصة فى نفسى إعجابا بقدرته.. ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضا قد ارتكب أخطاء وتورط فى مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها. فإحساسى نحوه هو الحنان والرقة، هو عندى: بابا تولستوى لهذه الأخطاء والتورطات نفسها.

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب ثم حاول أن يكون شيخا طاهرا وأسرف فى معنى الطهارة حتى قال، وحاول أن يمارس ما كان

يقول به، إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجته إلا بغية التناسل. ولكنه أخفق إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين. ويعود من هذا الصراع خائبا.

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدرى أن فى هذه الدنيا أديانا يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم، حتى إذا اكتهل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان فإذا به يتورط فى ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى إثنى عشر يوما من الضلال والدمار. ثم الموت..

وكان شريفا له لقب كونت وعنده آلاف الأفدنة يستغل عشرات الفلاحين فى زراعتها. ثم انبلج له نور جديد فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له فى استغلالهم. ويغادر الفلاحون منزله وفى نفس كل منهم شك أو شبهة فى سلامة عقله. ثم تدرى عائلته بما جرى فى هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه وتستمر على الرغم منه فى استغلال الفلاحين.

وألف عشرات القصص الخالدة وكلها فن ومجد وحب. ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر. ثم يختمر فى نفسه الإيمان الجديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون إلى الحنان والخير والقناعة وسذاجة العيش.. فيكف عن التأليف. ويرفض أن يتناول قرشا من أرباحه من هذه القصص.

ثم لا يكتفى بهذا بل يعمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين لأن صنع حذاء يدفىء قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجد فيه القارىء لذة فنية.

وتثور العائلة فى وجهه وتضرب عليه حصارا حتى لا يتورط فى عمل أرعن جديد.

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحابى القدر بهم بعض الناس. فهم حب وإخلاص وتضحية. وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب. وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق شهق شهقة الخلاص، فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب. ويبقى الاثنان يتناجيان.

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب، فهى تغار. وهى تحقد. ثم تنفجر فتكتب فى مذكراتها بأنها نظرت من صير القفل. ولا تشك فى أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حيا جنسيا شاذا. وكلا الرجلين قد أوشك على الثمانين.. وهذا حقد الغيرة وعمى الغيرة وكفر الغيرة.

ويستقر فى ذهن تولستوى أنه قد فشل فى حياته فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذى كان ينشده بإحساسه. ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذى قال به ودعا إليه. بل أن نفسه لتهفو حتى وهو فى هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية. وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسى ليتقدم فى ذل إلى زوجته.

والدنيا حوله فى آلام. فقر وجوع ودنس وظلم. أجل ليس له الحق فى أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافىء. وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير وأنه يجب أن ينكر الانكار العظيم لحياته الماضية وأن يفر من الدنيا .. إلى الله.

وكيف يفر إلى الله هذا الشيخ الذى بلغ الثانية والثمانين.

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من ١٩١٠ تأتى إليه عربته التى ينتظرها بميعاد ويحرص الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر. ثم تسير به العربة إلى محطة السكة الحديدية. فينزل ويجد صديقه الطبيب فى انتظاره. ويأتى القطار فيركبان فى إحد عربات الدرجة الثالثة.

وينزل كلاهما فى إحدى المحطات. ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات.

ولكن لا تمضى أيام حتى تعرف ابنة تولستوى، وهى فتاة فى السادسة والعشرين، مكانه فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها. ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها. فهو يستيقظ فى الرابعة من الصباح. والثلوج تكسو روسيا بأجمعها. فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب.

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح فى غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية. وبعد أيام بين يدى ابنته يموت. يموت موتا عظيما بعد أن عاش حياة عظيمة.

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة. ولكن قصة حياته أجمل بل وأخلد.

إنها كانت جهادا شاقا وأخطاء متوالية فى سبيل الحق والشرف. ونحن أعجز من أن ننهج هذا النهج فى الحياة. ولكن هذا العجز يزيدنا حبا له. وحياته هى رؤيا دائمة، هى دعوة إلى أن نتحرى الحق

ونجرب التجارب فى العيش فننفض العادات، والتقاليد، والعرف، إذ لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار.

وتجارب العيش هى فى النهاية أثمن ما نطلبه من المؤلف أو المفكر. ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف العظيم كما ننتفع بمؤلفاته. بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هى نهج جديد للبشر.

وكثيراً ما أقارن بين حياة فولتير ومؤلفاته فأجد أن كفاحه الشخصى للتعصب الدينى قد ربى أوروبا وعلمها معانى جديدة لشرف الفكر. رباها وعلمها بأكثر مما ربتها وعلمتها مؤلفاته. وكذلك الشأن فى حياة غاندى أو شفيتزر.

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش فى حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرحب. ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل فى عيشنا الحاضر. أو على الأقل يغرسون الشك فى نفوسنا حتى لا نسرف فى عاداتنا الاجتماعية الموروثة ونتقيد بها كما لو كانت شعائر دينية. فمجتمعنا الذى نعيش فيه مثلا هو مجتمع اقتنائى. يعلمنا كيف نقتنى، ويغرس فى نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد وكثيرا ما نسير إلى أقصى الحد لهذه العواطف فنقع فى هموم هى سموم تتأكل نفوسنا وأجسامنا معا. ونشقى بما نقتنى.

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادىء التى يدعو إليها هذا المجتمع فقنع من الدنيا بشملة وعنزة، وعاش سعيدا إلى سن الثمانين تقريبا، ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل. وكانت له مبادىء فى الخير

والبر والإخاء والحب هى ثمرة هذا العيش الساذج أو على الأقل كانت بعض ثمرته.. لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا «يكيف» أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد. وأسلوب الاقتناء فى العيش يبعث الطمع والحسد، وأسلوب القناعة فى العيش يبعث الطمأنينة.

* * *

وأنى أذكر هنا رجلا جرب تجربة فى العيش كانت إلهاما لغاندى. هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى، الذى أخذ عنه غاندى أسلوب العيش، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الامبراطورية البريطانية وهو «العصيان المدنى».

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحرارا بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه، لأن لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية، حتى حين يخالف العرف المألوف. وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريجا آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الانجلز.

ولد ثورو فى ١٨١٧ ومات فى سنة ١٨٦٢ وقد ألف كثيرا. ولكن ميزته أنه أدخل الطبيعة فى الأدب الأمريكى، وأثار الوجدان جمال الريف والغابة والطير والوحش. وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة. فعمد هو إلى صده وترك المدينة وأقام فى الغابة. وكتابه «والدين» هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها.

وهو يقول عن تجربته هذه: «لقد أردت أن أعيش عن قصد وأن أجابه، حقا، عمق الحياة الأصلية فقط، كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى

هذه الحياة حتى إذا قاربت الموت أكون واثقا بأنى قد عشت، ولم أكن أرغب فى أن أحيى بما لم يكن أصيلاً فى الحياة، لأن الحياة غالية، كما أنى لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضروريا. إنما أردت أن أعيش فى عمق وأن أمتص مخ الحياة، وأن أحيا فى قوة حياة أسبرطية تبعد عنى ما ليس من الحياة، وأن أدفع الحياة إلى مأزق وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها، فإذا كانت خسيسة فإنى سوف أعلن خستها للعالم، وإذا كانت سامية فإنى أريد أن أعرف هذا السمو وأجربه وأقدم عنه حسابا».

هذا كلام جد وعمل جد، فإننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة، وإنما الأنبياء وحدهم هم الذين وقفوه وجربوه. إذ لست تجد نبيا إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع، ويبحث فيها عن مراسيه فى الدنيا. وهو فى هذا الاعتكاف «عاص مدنى» يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كى يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التى تعلو على العادات والعرف. والأديب المخلص فى حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر.

ولكن ثورو لم يكن يرد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط وإنما كان يرد أن يجدّ ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتمدنين.

لقد نشأ ثورو فى مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التأنقات التى تمتاز بها المدن، هى مدينة كونكورد فى الولايات المتحدة، وعاش ثورو فيها واحترف التعليم، ولكنه تركه للأدب. ولم

يوفق كثيرا بل الحق أن شهرته فى أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حيا يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة.

وإحساس ثورو للطبيعة عميق يدهشنا أحيانا بعمقه، أنظر إليه حين يقول:

«إن الطبقة العليا من التربة التى تحتوى جذور الأعشاب تحوى من الأدوات الميكانية ما هو أدق من أدوات الساعة. ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا. وهذه الحركة التى تجرى فى التربة فى الظلام، وهذه الكيمياء التى تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الفتات البالى لجديرتان، لو أننا فهمناهما، أن تزودنا بأعظم كشف فى الطبيعة».

ولم يكن ثورو يدعونا إلى التخصص فى دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش في الطبيعة. وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شىء ثانوى إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة: بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر. فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها. ثم يجب على الإنسان أن يكون قادرا على أن يعيش منفردا متوحدا يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع كما يجب أن ينشد سعادته واختباراته من الطبيعة وليس من النجاح المالى أو الاجتماعى. وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ولكنها صداقة الزمالة فى الطبيعة.

أن الإنسان الاجتماعى كائن صغير إزاء الإنسان الطبيعى.. الأول يعيش فى المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق له هموم صغيرة

تستوعب نهاره بل بعض ليله. وهو يعمل جادا متعبا كى يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طولِ عمره. ولكن الإنسان الطبيعى لا يحتاج إلى أن يكد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه. أما سائر وقته فينقضى فى الالتصاق بالطبيعة. وهنا يصدمنا ثورو بقوله لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام فى الأسبوع ثم يوما من الراحة؟ أليس العكس هو الأولى؟..

وهو يعنى إننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة وارتضينا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة فإن يوما واحدا من العمل فى الأسبوع يكفل لنا جميع حاجاتنا. أما الأيام الباقية فهى للإستمتاعات والاختبارات.

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية فى ١٨٤٣. وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة. وهناك بنى بنفسه كوخا من الخشب. وكان قريبا منه غابة يحصل منها على خشب الوقود. وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك. وكان، عندما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة، يؤجر نفسه للمزارعين المجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله. وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولارا. وكان طوله ١٥ قدما وعرضه ١٠ أقدام وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحتوى المسكن العادى فى المدينة.. «ولم يكن له قفل على الباب زو ستار على النافذة وكان جزءا من الطبيعة بقدر ما كان جزءا من العمل البشرى».

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمر بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طربا جنسيا قد بلغ

الذروة. وهو يستخرج ممنها لهذا السبب الاحساسات والمعانى التى لا تخطر على بال من يعيشون فى المدن حيث معظم اللذات مصنوع. أنظر إلى قوله:

«الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر»

«ليست الأرض التى أوسها هامدة ميتة، إذ هى جسم وروح... وليس لأمعائها الدقيقة نهاية. هنا كيمان من الأنوار، من الأكباد، من الأمعاء؟ أليس لك أمعاء؟ أن للطبيعة أمعاء. ثم هى أم البشرية. وعندما نضع البدور فيها تتجر ثم تنمو».

هذا هو الانتشاء بالطبيعة. وهو، مثل كل انتشاء، يحوى شيئا من الهذيان. ولكنه هذيان ملهم يدل على حقائق. وهو يقول أيضا:

«يجب أن تصعد فوق الجبل كى تعرف العلاقة بينك وبين المادة. أى بين جسمك وبين المادة. لإن جسمك يجد بيته هناك».

«أنظر إلى أصابعى وكيف أتناول وأعبث بها. أجل، أنها، هذه الأصابع. قد تكون جزءا من قمة هذا الجبل الذى أصعد إلى قمته كى أرى أبناء عمومتى. أنه يحوى أصابع الأيدى والأقدام كما يحوى الأمعاء. ومن هنا إهتمامى».

ثم يقول: «عش فى كل فصل من فصول السنة. تنفس الهواء واشرب الشراب، وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعا. ولتدفعك جميع الرياح. افتح مسامك جميعها واستحم فى مد الطبيعة وفى أنهارها ومحيطاتها. فى جميع الفصول».

وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل فى طرب وفرح، وإذا كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب فى أرج جميل، فأنت موفق. والطبيعة تهنئك. ولك الحق عندئذ فى أن تحس أنه قد بورك عليك».

* * *

لم يقض هنرى ثورو عمره كله فى كوخه. إذ هو رجع بعد سنة وشهور إلى المدينة. وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى حياة الفطرة فى الغابة لم تعد ممكنة. وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه أومأ ايماءة لنا بأن التكاليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغنى عنها. وإن فى «الفقر الارادى» كما سماه قيمة يجب الا نستهين بها. فإن حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم، كل هذا يمكن النجاة منه بأن تجعل شعارنا: كيف نستغنى؟ بدلا من: كيف نقتنى؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت فى ١٨٥١. لأن المباراة التى يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هى أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت فى أيامه. والأمريكى الذى ينبعث فى ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية.

وأنه لمن الحسن أن ينبهنا كاتب بإسرافه فى الحب للطبيعة إلى أنه، إلى جنب الشارع والنادى.

واقتناء الضياع أو الأسهم فى الشركات، إلى جنب هذا توجد أرض وسماء وأشجار وزهور وأنهار وجبال، وأن القمر يضىء فى الليل ويكسو الحقول باشعته، وأن النجوم لتنادينا فى الظلام كى نتأملها ونتحدث إليها.

وأننا من وقت لإخر يجب أن نختلى ونستوحد كى نعيد النظر فى حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التى لم نفكر من قبل فى قيمتها؟ وإلا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بالهام الطبيعة التى تردنا إلى الأصول والجذور؟

تولستوى .. فيلسوف الشعب

ولد تولستوى فى ١٨٢٨ ومات فى ١٩١٠

ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً. ولكنه لم يكد يعيش فى القرن العشرين، فقد مات قبل الحرب الكبرى الأولى بأربع سنوات. وماكان أحوجنا إلى أن نسمع صوته عن هذه المجزرة البشرية العظمى.

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً وأختبر كثيراً. فقد اشترك فى حرب القرم فى ١٨٥٤، ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا. ورأى أحد القياصرة يقتل. ورأى تحرير العبيد فى ١٨٦١. وأصطدم بالكنيسة وطرد منها. واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه المورثة للفلاحين. وانهزم، وصمت.

وكان طيلة حياته فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ضمير أوربا يرتأى الرأى ويعظ الموعظة، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك. وهنا أكبر أهماله أو خطأه.

كان ضمير أوربا كما كان غاندى، منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨، ضمير الهند والعالم. وكلاهما، تولستوى وغاندى، صورتان لشخص واحد،

هما صورة الأستاذ وتلميذه ولكن هذا التلميذ، غاندى، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أعمالا منفذة.

فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها تولستوى رأى أهوالا من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم. فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب. وأن ينذر قلمه لمحو هذا الشقاء البشرى. أى الحرب.

ولكن حرب القرم يمكن، بالمقارنة إلى حروبنا الجديدة التى تخيم على عالمنا العصرى، بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة، يمكن أن تعد مباراة فى كرة القدم.

ولو أن تولستوى كان حيا فى أيامنا، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة، لطالب بارسال جميع المسئولين إلى المارستان.

إنها الحرب التى جعلته يقول فى ١٨٥٤: لم أتمالك أن أتناول القلم وأكتب. وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام.

والحرب بؤرة لمشكلات عديدة. اضطر تولستوى، كما يضطر غيره فى مثل هذه الظروف، إلى أن يشتبك فيها

فاشتبك فى معنى الدين! ودلالة الفن، وهدف الثقافة، وأسلوب العيش، وعادات الحب، والزواج. وكتب القصة الفنية، والرسالة المناقشة. وحاول أن يحس وفق مايقول ويؤمن. ونجح قليلا وفشل كثيرا.

نجح من حيث أنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعانى من الأسواء ويحمل من الأوضار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه. فكانت بذلك مؤلفاته إيحاء للثورة.

وفشل من حيث أنه كان يعتقد الاعتقاد الدينى بأن إصلاح الفرد يؤدى إلى إصلاح المجتمع. ولم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات المجتمع وأساليب عيشه. ونظم أخلاقه وعاداته. وأنه لن يتغير إلا إذا غيره المجتمع أو هيأ له أسباب التغير.

كان تولستوى مثاليا ولم يكن ماديا.

* * *

نجد فى حياة تولستوى ظروفا أو حوادث رسمت له خطوط حياته فإن حرب القرم بفظائعها جعلته كاتباً يكتب عن قهر والزام لأنه لا يطيق الصمت. وهذه الحال أعظم ما يهيء التفوق والنبوغ فى الكاتب. ثم رأى هول النظام الاقطاعى فى روسيا، والرق الزراعى الذى كان يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض، لا يتركونها إلى غيرها. إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها. وقد ألغى الرق فى ١٨٦١، ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعا قبل أن يسن هذا القانون.

ورأى تولستوى فى حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستشرقين.

فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين: أحدهما يقول بالتزام روسيا لمبادئها الشرقية. والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية.

وهذا التردد أوقع بالشعب فى بلبلة كسب منها الرجعيون. أى القيصريون والكنسيون. أليست القيصرية والكنيسة مؤسستان شرقيتين وطنيتين يجب المحافظة عليهما؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق الزراعى، وتعليم المرأة فى الجامعات، والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين، بل البرلمان نفسه، كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خونة للمبادىء الشرقية الروسية.

وكان فى الجانب الاخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمذهب الماركسى فى الاشتراكية، والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوربية.

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه ففى ناحية نجد دستوفسكى ينعى على أوربا ماديتها ويدعو روسيا لاستيفاء شرقيتها.

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب.

ومن هنا نشأت كلمة «العدمية: النيهلزم» التى سكها تورجنيف كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى الصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم، لأن الوجود لا يطاق.

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطلبون بقاء القيصرية الكنسية المستبدين وبقاء الرق الزراعى، وبقاء المرأة للبيت.. وبقاء الإستسلام والخضوع والرضى بالفقر.

* * *

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه .

وفى هذا الإنتماء أنسة تتولد منها شجاعة وأصرار، وإحساس بالسلامة بالبعد عن الإخطار. ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئا، وإنما العبرة بالإيمان.

وكان الأب الروحى لتولستوى، جان جاك روسو.

كما كان الأب الروحى بعد ذلك لغاندى، تولستوى نفسه.

وقد صرح تولستوى بأنه فى شبابه كان يعبد روسو. وأنه كان يحمل ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسى العظيم. ولقد قال فى أحد مؤلفاته: «أنى أحس، وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو، كأنى أنا قد كتبتها».

ونحن نجد بين الأثنين قاسماً مشتركاً. فإن كلا منهما وجد فى الرجوع إلى بساطة الحياة حلا للعقد الاجتماعية التى أوجدتها الحضارة العصرية، والتى جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف، والمباراة القاتلة، واتخاذ القصد المخطأ فى الجهد لجمع المال، والعيش فى البذخ.

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة. وقد عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين آثر الريف على المدينة، والألتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية التى كثيراً ما تستحيل إلى عقد.

ونحن نجد فى اعترافات روسو، ثم اعترافات تولستوى، أمكنه عديدة للمشابهة. ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتفت إلى هذه الاعترافات.

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى، تلميذ تولستوى، اعترافاته أيضاً التى سماها «تجارب فى الحياة»؟

السبب هو القلق فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة والسلام والسعادة فى كتابتهم، كانوا قلقين لهذا السبب نفسه. أى أن جهدهم لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحالهم إلى مفكرين مكافحين مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه. وقد تألموا جميعهم. فإن روسو طورد كما لو كان مجرما. بل أنه عاش بعض سنى حياته وهو مختبىء أو هارب. وتولستوى طورد من الكنيسة التى كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة. وأما غاندى فقد ضرب وحبس. ثم أخيراً قتل.

ولسان هؤلاد الثلاثة جميعاً يقول كما كان يقول أرميا: «ربى! لم جعلتنى مشاقا لأهلى؟» أى ربى. لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى؟ ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطلب الاصلاح والتطور والأرتقاء لن يمكنه أن يؤدى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله. وهؤلاء الأهل، أو هذه الشعوب والمجتمعات، بعد أن تضرب النبى أو الفيلسوف والأديب، وتحبسه، وقد تقتله، بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكراه وتدرس أقواله.

وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة.

* * *

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلا ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام، وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق. فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المباراة التجارية الجديدة، واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم «بورجوازيين»، وجد أن المناخ الإقتصادى الإجتماعى الجديد، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة - هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم. فكر الحضارة الغربية العصرية ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية، دعوى روسو قبل مائة سنة.

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلا ونبحث الموقف السيكلوجى.

فإن جاك جاك روسو حين خبر المظالم الملوكية والإقطاعية فى فرنسا، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب، حين رأى ذلك قال أن الحضارة كلها نجاسة يجب أن نتجنبها ونعيش فى سذاجة، لا نشترى الذهب ولا نبنى القصور ولا نأكل على الموائد المطهمة ولا نقتنى الحرير.

وكذلك تولستوى حين رأى غزو النزعات التجارية، والجشع، أى الاستكثار من الثراء بالمباراة القاتلة وسحق الفقراء من العمال. ثم ما ينبنى على ذلك من مدن يحى فيها الأثرياء مع التعطل والدعارة إلى جنب الاف العمال الجائعين الذين يعيشون فى البدرومات - حين رأى ذلك قال أيضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدن. وأن الصناعات الصغيرة فى القرى خير من المصانع الكبيرة فى المدن.

وقد تعلم هو صناعة الأحذية كي يحس راحة الضمير. وكان يحرث الأرض. وكان يقول أن المتمدنين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية لأنهم لا يؤدون أعمالا مجهدة. ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين على الأرض لما احتاجوا إلى الرياضة البدنية.

ثم جاء غاندى فأحب تولستوى كما كان هذا يحب روسو. وأسس مزرعة باسم «مزرعة تولستوى» حين كان فى أفريقيا الجنوبية يدرس مشروعاته فى مقاومة الشر بالخير. وكان يعمل ويجرب فى أساليب الحياة التى أصبحت مذهبا عاش به الهنود. فلبسوا الخيش وأكلوا الخضروات وصاروا يغزلون وينسجون كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجليزية الواردة إليهم من انجلترا.

* * *

أرجو ألا يفهم أحد إنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية التى زعموا أنها تصلح للحياة العالية. وإنما وجدت أنه يجب، كى نفهم تولستوى، أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر. ويكفى أن نقرأ قصة «نشيد الإنشاد» فى التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم. إذ أن هذا السفر لا يعدو أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسذاجة والقناعة ضد الحضارة.

وفى قلب كل منا شىء يهفو إلى هذه الحياة. ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتمدنة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها، وأننا نقع فى مضاعفات تقلقنا وتؤيسنا وتمرضنا

التفكير فى العودة إلى الطبيعة، والتفكير فى القناعة بحياة الريف، والتفكير فى لبس الخيش وطعام النبات - كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها.

أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة.

* * *

تمتاز القصة الروسية، على وجه عام، بالواقعية. وهذا هو الأثر الذى تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربى الذى يعرف الآداب الروسية.

وتولستوى واقعى يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها فى صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة فى روسيا.

وهو فى كل ما يكتب لا ينسى أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية. وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانوا فلاحين سذجين مثل «لفين» فى قصة «أنا كارنينا». وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل «فردمنسكى» فى هذه القصة نفسها.

وهذا تحيز واضح له أصول فى روسو معلمه الأول.

ثم هو، مثل روسو قبله، ومثل غاندى بعده، شعبى. أى مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين. ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة الروسية، بل أن كراهيته لشكسبير تعزى، إلى حد بعيد، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزى يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون. وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء. بل أنه يسرف هنا حتى يقول أنه يفضل أغانى الشعب الروسى العامية على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم:

وأسلوبه لهذا السبب شعبي. هو حديث يكاد يكون عامياً، لا نجد فيه تلك الكلمة المضيئة أو العبارة المزوقة التي اعتدنا أن نجد في كتب الأدب الأخرى. ولكنه في كل مايكتب سيكلوجي عميق لا يعلو عليه هنا غير دستوفسكي الذي عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد.

* * *

وربما يكون من المنير هنا أن نقارن بين تولستوي ودستوفسكي.

فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة. بل لا نغالي إذا قلنا أنهما أعظم كاتبين للقصة في العالم كله. ومع ذلك أنا أوثر عليهما جوركي، ولكن ليس ذلك لأنه يعلو عليهما في فن القصة، وإنما لأني أجد فيه مزاجي ونزعتي واتجاهي في الثورة التي لا يرضى عنها تولستوي أو دستوفسكي المسيحيان.

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكي وبين تولستوي.

ذلك أن دستوفسكي يهدف إلى ايجاد أشخاص، بل أبطال، لكل منهم شخصيته الفذة التي يختلف بها عن سائر المجتمع. فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتي مجانين. ولكنهم عبقريين. ولكن عبقريتهم في الإحساس أكثر مما هي في العقل هم أذكياء في الإحساس. فإن «رسكلنيوف» بطل «الجريمة والعقاب» وهي القصة التي كنت أول من حاول ترجمتها في ١٩١٢، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقي. ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ويرضى بحكم الاعدام أو النفي المؤبد عن إحساس إنساني. ولهذا المؤلف أشخاص متدينون في

قصته العظيمة «الاخوة كرامازوف» تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم: هل هم مسيحيون أم إنسانيون. وهل ينشرون النور أم الظلام؟ نحن نقرأة ونحن نعانى لذة اليمة، وكأننا فى قبضة محلل سيكلوجى نستجيب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب.

جميع أبطال دستوفسكى شواذ، مرضى، ولكنهم عبقريون أذكياء

أما تولستوى فمن الشعب يكتب للشعب. رجاله عاديون. وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتيالات البلاغية.

المثل الأعلى عند دستوفسكى الرجل الشاذ الذكى الذى يحس أكثر مما يتعقل.

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع. ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجا يحى فى الطبيعة والصلاح. هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية. بل أكاد أقول العامية.

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل من المجتمع.

والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع.

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة «أنا كارنينا» وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية، أى اجتماعية، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح. هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين.

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب «رسكلنيكوف» القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها، لأن حياتها «لا يزيد فى القيمة على حياة برغوث».

أليس هذا هو المنطق، منطق العقل وحده؟

ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فيشرح فى أكثر من مائتى صفحة أن هذا المنطق مخطأ.

وأبطال دستوفسكى يختلفون فى معانى الحب من أشخاص تولستوى البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البغى، ويعبدها، لأنه يعبد آلامها، وينغمس فى دموعها، ويكرع تعاستها. وكأنه يبكى فى هذا الحب تعاسة الناس وبغاء حياتهم وجوعهم. وهو يستنبط من هذا الحب المعانى الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك.

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الافلاطونى الذى يتوهم الناس أنه الحب السطحى. مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان والحيوان والنبات، والصدق والشرف، والحقيقة والفن والطبيعة.

الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولا. ثم بعد ذلك لهذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات.

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقيمته للشعب. فالكتاب أو الصورة أو اللحن إنما هى جميعها وسائل لزيادة الاتحاد، بل الاندماج، بين أفراد الشعب. وعنده أننا كلما أندجمنا فى الشعب

كنا أسعد، وكلما انفصلنا كنا أتعس. ومن هنا كراهته لشكسبير الذى يكتب أحياناً فى وقاحة، ويصف الشعب أنه غوغاء. وكذلك كراهته لجوتيه، حتى قال أن الأغانى الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره وكذلك أحتقاره لما كان يسميه «الاحتيالات البلاغية» لأن فنون البلاغة للخاصة وليست للشعب. ثم أخيراً نجده يحرث الأرض ويصنع الأحذية بيديه.

أنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية.

وهو هنا بالطبع مسرف. ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والاحساس العاطفى، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى. بل أن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبية فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها.

* * *

تغمر احساسات الحب حياة تولستوى.

الحب الافلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة: حب روسو.

وأكبر الظن أن روسو هو الذى نبه ذهنه إلى الحب. أو هو الذى أيده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف.

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الانجيل. ولكن التفانه هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة.

والواقع الذى يثبته تاريخ أوربا أنه كلما اقتربنا من الانجيل، وحاولنا أن تهم تعاليمه منه مباشرة،ونقرأه مثل أى كتاب اخر، كلما فعلنا ذلك، ابتعدنا عن الكنيسة. ،نعنى بالكنيسة هنا كهنتها

فإن لوثر، المصلح البروتستنتى، حين شرع يدرس الانجيل مباشرة طردته الكنيسة الكاثوليكية. وكذلك فعلت مع رينان. وكذلك فعلت الكنيسة الارثوذكسية مع تولستوى

أن للكهنة تفسيرات «رسمية» للانجيل. فمن تجرأ من المسيحين على أن يفهم كلمات الانجيل، خارج هذه التفسيرات الرسمية، فإنه عندئذ يكون عرضه للوم والحرم. وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستنتية، التى تعلمت من طرد لوثر الا تطرد أحداً يخالفها

وكان طرد تولستوى أو إلقاء الحرم عليه، قائما على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها، وعمادها الحب، أخلاقا لا تحتاج إلى وحى إلهى. بل أنه يقول أنه هو نفسه، أى تولستوى، كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح فى الأخلاق دون أن يحتاج إلى وحى إلهى. لأن هذه الأخلاق هى أفضل مانعرف وأليق ما تكون للمجتمع البشرى. هى أخلاق عملية

وهو يقول فى إحدى مذكراته حين كان يقاتل فى حرب القرم حوالى ١٨٥٥ : «.. خطرت بذهنى فكرة، هى تأسيس ديانة جديدة تتفق والحال الحاضرة للنوع البشرى. أعنى الديانة المسيحية التى تتطور من العقائد الجامدة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لاتهبنا سعادة المستقبل (بعد الموت) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض»

وهو يستخلص من موعظة الجبل فى الانجيل هذه الوصايا الخمس:

١ ـ لا تغضب.

٢ ـ لا تزن.

٣ ـ لا تقسم.

٤ ـ لا تقاوم الشر.

٥ ـ لا تكن عدواً لأحد.

هذا هو كل ما يؤمن به من الانجيل. وما عدا ذلك فزيادات يمكن الاستغناء عنها ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق، ولو كان قد فعل لاستقر على العلم وحده.

* * *

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التى تواجهنا عندما نفكر فى الحياة البشرية.

لماذا نموت؟ ولماذا نخاف الموت؟

وقد فكر تولستوى كثيراً فى هذا الموضوع. وله قصة تسمى «ثلاث توبات» توضح لنا رأيه فى الموت. وقد كتبها ١٨٥٨ والموتات الثلاث هى موت سيدة متمدنة، موت فلاح فقير ساذج، ثم موت شجرة. وهو يصف تدرج الموت، منذ بدايته حتى نهايته، فى هذه الأحياء الثلاثة. وله نظرية فى ذلك، هى أننا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحى فى

الحضارة على وعى بأن كلامنا فرد منفصل. ويزداد هذا الاحساس إذا كنا متمدنين متعلمين. ولذلك تخشى السيدة الثرية والموت.

أما الفلاح، فلإنه ساذج، يحيى مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير، أى أنه ليس على وعى خاص بحياته هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف.

أما الشجرة التى تخلو من الوعى، ليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هى جزء متم لا ينفصل من الطبيعة هذه الشجرة لا تحس بتاتاً بالموت.

ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لانجد فيها ما يدل على ألم أو خوف.

والمغزى الذى يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث، أنه كلما ازددنا ثقافة وتمدنا ومعرفة، إزددنا أيضاً وعيا وانفصالا من المجموعة البشرية. ونحن نتألم لهذا الوعى والانفصال وقت الموت. ولكن لوكان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح، بل مثل الشجرة. لأن موتنا جزئى، إذا نحن أحياء فى المجتمع أو الطبيعة لأننا لم ننفصل منهما. إذا يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبعة أخرى لروسو

إنه يمدح الحياة البدائية، بل يمدح الطبيعة غير الواعية. ويجد فيها الفلاح آلام الموت والشفاء من الخوف من العدم.

وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التى تلى الموت. ولا يشتهى، ولا ينتظر أطباق الحلوى بعد الموت، هذه الأطباق التى يعتقد بعضنا أنها تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه. مع أن الواقع يثبت غير ذلك.

* * *

إن تولستوى يستحق النقد هنا ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث أنه مواجهة العدم للإنسان وأنه نهائى ليست بعده حياة أخرى.

ولكن عبرة الموت يجب أن تنعكس على الحياة.

إن مادامت الحياة تنتهى بالموت إنتهاء تماماً. فيجب لذلك أن نحى حياتنا بأقصى وأعمق ما نستطيع، وأن نجعل من هذه الدينا نعيما لأبناء البشر. نحى سعادة وسلام وعلم وثقافة وإستمتاع. ،ونعم الخير والعدل، ونتحمل وحدنا المسئولية فى كل ذلك بدلا من القاء المسئولية على قوات غيبية.

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثوريا. والثورة وحدها، أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع، وهى التى نقلت الإهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدينا.

وكراهة تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب إلا يقاوم. وأن الموقف السلبى من المظالم والشرور وجميعها هو الموقف الذى اتخذه بعد ذلك غاندى.

وقد أتخذه غاندى نقلا عن تولستوى.

لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة. إذا كان يقنع بالإيمان بالمسيحية، بالإخاء المسيحى.

ولكننا مع ذلك نظلمه إذا قلنا أنه يعمل لتعجيل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين فى روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة. وهذا السخط كان الأختمار الذى سبق الأنفجار بالثورة.

لم يكن اشتراكيا، ولم يكن له برنامج، ولم يكن له كفاح عملى مذهبى سوى تسليم الأرض للفلاحين. وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التى منعته من إنفاذ نيته.

لم يكن تأثيره ارشاديا للثورة، ولكنه كان إيحائيا.

* * *

ولا نستطيع أن نقول أن غاندى قد أرشد الثورة فى الهند بالتعاليم التى أخذها عن تولستوى. وإنما قصارى ما نقول عنه أنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التى انتهت بالمقاطعة، مقاطعة الإنجليزى المستعمرين.

وكلاهما، أى تولستوى وغاندى، يجهل الأساس الوحيد الذى تنبنى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره.

هذا الأساس هو الأساس الإقتصادى.

كان كلاهما «مثاليا» وليس «ماديا».

كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح

الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدى إلى الإصلاح وهذا هو الخطأ الفادح

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى، الثمرة أو الثمرات، التى يثمرها النظام الإقتصادى. فإذا كان هذا النظام حسنا عادلا فإن الإخلاق تكون حسنة عادلة

كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد. ثم يؤدى ذلك فى منطقه إلى إصلاح المجتمع

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الان. فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكى يتعلم أفراده بنظامه، محض نظامه، ويماسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى. وهو أن على الفرد واجبات إذا أداها صار المجتمع صالحاً

ولكن هل نجحت المسيحية فى ذلك؟

إنها لم تنجح. بل انتهت بعد ألف سنة من تعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم

إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخدما عصرهما؟

لا. لأن الواقع أنهما، كما قلنا، أوجدا سخطاً أدى إلى اختمار ثم انتهى الاخمار بالانفجار، فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا ثم ثور الاستقلال فى الهند

السخط جعل الناس يفكرون ويغضبون. وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى ١٩١٧

ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه ييتئس ويشقى. إذ كان هو يسخط ويتآكل ببخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف. إذ لم تكن له وجهة ولم يكن له قصد

كان يريد الفرار فقط

فر من الحياة البائسة إلى الموت. ومات

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوى بالمجتمع، على الطريقة التى رسمها، لم يعد ممكنا. لأنه لم يعد من الممكن أن ننزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة.

ولكن هناك ارتباطا آخر يحسه الرجل المثقف الواعى فى أيامنا، هو هذه الاشتراكية التى ننشدها. فنحن فى حياتنا، بل كذلك فى موتنا. أجزاء متممة للمجتمع، نرقى برقيه.. فلا نشقى من الحياة، ولا نخاف من الموت

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى. ومع كل ما نجد فى حياتهم وتعاليمهم من أخطاء. فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة العصرية.

فرويد... تشريح النفس البشرية

في النصف الأول من القرن العشرين خطا كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات. فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وان تكن وثبة جامحة في الظلام. إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التي عممت الذعر.

والتقدم في الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة لأن العلوم تاريخاً يعود في بعضها إلى أكثر من مائتي سنة. ولكن السيكلوجية كانت إلى نهاية القرن الماضي علماً مغلقاً أو كالمغلق ولعل أكبر ما علق تقدمه بل ميلاده هو أنه نشأ نشأة زائفة في حضن الفلسفة التي كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد. ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو «العقل الكامن» أو الكامنة.

وفكرة الكامنة هي احدى الفكرات المحورية أو البذرية. فكرة خصبة ولدت وتوالد أولادها حتى ظهر من هذه الأولاد ما عق الأم ولكنه في عقوقه قد أثمر ونفع.

وفى العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً، فمو هو أن بلغنا العقدين الثانى والثالث حتى صخب وعلا بل طغى. وأحس العالم أن ها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم نكن نعرفه من قبل.

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد حفل بالصراع الفكرى بشأن داروين والتطور، فإن النصف الأول من هذا القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن. وبين الفكرتين شبه كبير. ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا ان الجسم البشرى هو، ثمرة التطور وانه لذلك يخفى كثيرا من الأعضاء الأثرية القديمة التى ورثناها من الأرومة الحيوانية التى نشأنا منها. وكذلك الشأن فى نظرية فرويد. فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة واننا نألم ونبتئس لأننا فى صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها.

وقد قضيت كثيراً من سنى عمرى فى ضوضاءس هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتى. فانى أعد منها خمسة أو ستة ألفتها فى هذا الموضوع بالذات أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين. فان كتبى: فن الحياة، وكيف نسوس حياتنا بعد الخمسين، والتثقيف الذاتى، والشخصية الناجعة. هى معالجات سيكلوجية لهذه الموضوعات. وهذا فضلا عن كتابى: العقل الباطن، وعقلى وعقلك، ومحاولات سيكلوجية وهى فى صميم السيكلوجية الشعبية.

وقد انتفعت كثيرا بهذا الإتجاه السيكلوجى فى ثقافتى، ولكنى لم أنتفع به كثيرا فى حياتى اليومية، لأنى على الرغم من معارفى فى

السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل، بل القليل جدا الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية. وأنا هنا شاهد على صحة التعليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر فى التوجيه الأخلاقى.

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب فى ذهنى وحركنى إلى تفكير اختلاقى جديد، فمن ذلك مثلا أنى تجنبت الخبط الذى يرجم به الكتاب فى موضوعات مختلفة مثل السعادة. فانى وثبت فورا وبداهة إلى أن السعادة هى الوجدان أى ما يسميه عامة كتابنا «الوعى». وانه بمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء. وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء. وهكذا الشأن فى موضوعات أخرى.

وقولى إن فرويد قد هدانى وأرشدنى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط. ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى... وأخصبت أحياناً ما أراده فرويد. وحسبى من ذلك أن أقول إنى أوشك أن أكون بافلوفيا هذه الإيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هى رجوع انعكاسية مكيفة أى معدولة عن الرجوع الأصلى. ولكنى ما زلت فى شك.

وقد كانت رحلتى فى السيكلوجية وانية متعثرة بدأت بفرويد ثم يونج ثم أدلر ثم أولئك الأمريكيين التجريبيين ثم كرتشمر ثم بافلوف.

ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط الميدان وأكسبنى الحافز. وفرويد هو بعد ذلك هو المفكر الأساسى بين السيكلوجيين فإنه حط على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه من اضطرابات شخصية. وهو حين يجعل هذه الشهوة

الجنسية وما يؤدى إليه من اضطرابات شخصية. وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله. ثم هو حين يعلق مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى عى السنين الأولى من الطفولة إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة الحاسمة في التوجيه الاجتماعى الصحيح.

وأخيرا هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به ما نفعل. فنحن نحب ونكره، ونخاف ونشجع، ونشمئز ونقبل، بعواطف اندست فى كامنتنا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد التحليل الشاق.

فقد يحب أحدنا فتاة ويتزوجها على اعتقاد انه يحبها لأنها جميلة أو وديعة أو أن عينيها ساحرتان أو غير ذلك وهو إنما أحبها لسبب طفلى هو انها تشبه أمة أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع. أو هو قد يكون مدللا نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية الأم لانها أكبر سنامنه فهو يستجملها لهذا السبب: أو هو وجد فيها كبرياء وتسلطا وهو مازوكى يحب أن يتألم فهو يحبها لأنه يحس فى جانبها إنه ذليل (وأيضاً محمى). أو قد يكون عكس ذلك. أى انه سادى يحب إيقاع الأذى والقسوة بغيره. فهو يختارها صامتة منكسرة أو ضئيلة الجسم لأن أنكسارها وضألتها يشبعانه ويزيدان احساسه بالقوة . أو قد يكون شاذا فهو يحبها لأنها تشبه الصبيان والشبان . وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث يكاد يعتقد إن هذا الاشمئزاز طبيعى »، وهو إنما يردد في نفسه ظرفا معينا سابقا أو أسلوبا للعيش قد تعلمه فى طفولته .

وقد نجد شخصا له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزه عجيبة فى التزامة هذا الهدف وفى توفيقه بتحقيقه . وحقيقة أمره أنه لظروف سابقة معينة قد تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذى ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة . ثم صار هذا الخيال يوجهه، من حيث لا يدرى، إلى هذا الهدف . ولبعض المجانين مثل هذه الأرادة الحديدية .

والإيحاءات المختلفة، من أبوينا ومن المجتمع ومما نقرأ ومما نصادف فى شبابنا، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد اننا نحن الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح . بل قد تتأثر بوحى أحلامنا ونحن نيام ونسلك فى الصباح وفق الرجوع التى أحدثها الحلم . ثم نبرر سلوكنا أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقا فى سلوكنا إنما هو رجوع وإستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو، أى «فرويد»، حين يوضح أن كلامنا أى « الذات البشرية» مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقنوم الأيد وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة، ثم أقنوم الأيجو وهو شخصيتنا الوجدانية التى ندرى بها ثم أقنوم السوبر أيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة، فى كل ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع فى الأصل إلى مجموعة المحظورات التى تعلمناها منذ الطفولة نضطر إلى التسليم بقوله.

بل كذلك أيضاً لانستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا فى الطفولة نحس دوافع لذية مبهمة تتفاوت بين القوة والضعف من الغرام الصريح إلى الحب الأفلاطونى.

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به فى مركباتى الذهنية ولكنى اضطررت إلى مخالفته فى أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا. ذلك أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حباً جنسيا ويجد لذة جنسية فى الرضاع والتمسح بجسمها. وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه. وأن هذا الكظم يدور فى دورات مختلفة بعد ذلك فى نفسه هو يفرج عنه بنشاط بدلى كالتسامى به إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أوإلى زلوان أخرى من الثقافة أو قد يمرض منه.

ولم أستطع أن اقنع نفسى بكل هذا ولكنى مع ذلك أسلم بالعواطف المركبة فى الطفل نحو الأب وهى حب وكراهية واحترام وعداء. وهى تعزى فى بعضها إلى مركب أوديب فان الطفل يغار على أمه من أبيه غيرة أظنها غير جنسية أو هى إذا كانت جنسيته فان الاحساس الجنسى فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤبه به. أى ان مركب اوديب ليس ميزان النفس البشرية وليس اساس المركبات النفسية فى الشباب.

اختلافى هنا مع فرويد فى الدرجة كما فى الموضوع. فأنا أسلم بأن خيال الأم أيام الطفولة يلصق سائر حياته ليختار زوجته من طراز أمه. وهو ينظر إليس الأعلى ومن دونه من الرؤساء نظرته الصفلية إلى أبيه.

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فإننا يجب ألا ننسى ماهو أهم منها وأحرى بأن يكون الميزان الذى توزن به السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر. ذلك أن تعلق الطفل بأمه

والتصاقه بها، أيام الطفولة، يجعله يحس نحوها بانها مركز أمنه وطمأنينته وهى مؤئله ومكان استغاثته عند الخوف. ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو الاشتهاء الجنسى.

والأم هنا تمثل المجتمع فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارها للاقتحام ينشد السلامة مهما كانت وضيعة. وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائقاً بالصعوبات والأخطار الخفيفة. وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب.

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار، غير مطمئنة إلى المستقبل، يكثر فيها الافلاس والتعطل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء وخوف الهزيمة فى الحب أو المباراة الاقتصادية العامة، فان القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأنا عليه مع الأيام أيام الطفولة.

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها، أو مركب أوديب، قائمة على التوسعة للطفل فى مجال بيحث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع إختراعاتة الصغيرة، فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز أى من مرض عصبى أو عقلى.

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائدنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأصلية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أو معدولة عن أصلها.

ويكاد الفرق بين فرويد وبافلوف يكون سيمائيا أى لغويا فى اختيار الكلمة وأسلوب التعبير.

فى الرغبة فى العدوان أو الموت أو فى هذا الاتجاه الاخلاقى أو ذلك الآخر. فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية إلى أن التربية وحدها العائلية، والاجتماعية، هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهة واستلطاف أو اشمئزاز وكفر أو إيمان وخضوع أو تمرد. وظنى ان هذا هو الفرق الأساسى بين فرويد وبافلوف الأول يكاد يكون غريزياً مائة فى المائة والثانى يكاد يكون اجتماعياً مائة فى المائة.

وبكلمة أخرى أقول أن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق فيعين لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد إلى تعاون وحب من مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من إحساسات القلق، إلى وطنية تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع. وعواطفنا التى تحرك نشاطنا هى جميعها ثمرة هذا النظام الارتزاقى الذى يرتب لنا معانى الضعة والشرف والخسة والسمو. ولن نستطيع أن نفهم معنى الانتحار أو الثأر والأمانة أو الخيانة الزوجية أو قوانين الزواج أو الطلاق إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصلية التى يرتزق بها الناس من صناعة أو زراعة ونحو ذلك.

وأنا أعد نفسى ممتازا على فرويد من هذه الناحية التى أعجب من إهماله لها. وهو إهمال خطير لأن سيكلوجية فرويد الغريزية تعد راكدة جامدة الا من حيث أنها تدعو إلى التفريج كى يقل الكظم. ولكن هذه السيكولوجية الاجتماعية التى تعلل العواطف بنظام المجتمع تعد

متحركة ارتقائية لأنها تنشد ترقية المجتمع لا يجاد العواطف البارة السارة. بل أن العلاقات الجنسية نفسها على ماتنبنى عليه من اساس طبيعى تتكيف بالمجتمع بحيث تكون سويه أو شاذة. لأن الشذوذ الجنسى العدوانى مثلا هو اجتماعى فى أصله أو إذا كان هناك أساس طبيعى له فإن هذا الأساس لا يعلل أكثر من اربعة فى المائة من الاتجاه العدوانى. وكذلك الشأن فى مركز المرأة العاطفى من الرجل فإنها كما أثبتت مارجريت ميد ليست على الدوام مطلوبة مغرية مزدانة كما هو الشأن فى مجتمعنا أو هى قد تكون عكس ذلك كله.

وقد يزدان الرجل ويطلب من المرأة أن تغازله وتحاول استرضاءه، واجتذابه. ومع أن المدارس «التحليلية» قد تعددت واختلفت أساليبها فانها جميعها ترجع إلى فرويد ولا يكاد يوجد فيها جديد إلا القليل الذى أوجده أو لربما أسماه «مركب النقص».

فرويد يعلق النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى إلى اللبيد الجنسى الذى نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكراهة الأب أى بمركب أوديب.

وأدلر يعلق هذا النشاط أو النشاط الشخصى على الأقل بالنقص الكامن الذى نشأ فى الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر.

ويونج يعلق هذا النشاط إلى الطاقة الطبيعية أى الغرائز الأولى وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكلمات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم. وهو يرى أن هذا التراث يحى فى الكامنة من وقت لآخر.

لنفرض أن هناك كاتبا ثائرا نحاول أن نحلل ثورته التى ينشد منها الديموقراطية أو مكافحة الاستبداد. فأن من الواضح أن الناس ليسوا سواء فى تحمل المظالم أو فى الرغبة الحارة فى التغيير الاجتماعى. فلماذا اختص هذا الكاتب بهذه الدعوة؟

فعند فرويد أن مرجع ثورته «مركب أوديب» لأنه يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء اليه فى طفولته واستبد به. وهو حين يكبر يضع الوزير أو الأمير المستبد مكان الأب ويوجه اليه كراهيته وكفاحه.

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصا فى جسمه أو شوهة فى وجهه وكان الخجل يحز فيه ويوجهه نحو التمرد على الرؤياء الذين أخذوا مكان المجتمع الذى كان يعيره أو يقف منه موقف التعبير أيام طفولته.

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة واحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى. فهو يمثل فى كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت في التاريخ البشرى. ومن هنا قيمة الأحلام وهى قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر. وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وقت النوم. فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين الف أو عشرة آلاف سنة. أى نعيش فى بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفزع والفرار مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المتقرضة.

والحق ان فى الأحلام شيئا كثيراً من هذا. وليس لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأفكار أكثر مما لنا الحق فى أن ترفض وراثة الأعضاء. فأننا فى أيامنا ننزع إلى الإيمان بوراثة العادة، كما كان يقول لا مارك، التى تعين وظيفة للعضو فى الجسم. كما نرى فى طول العنق عند الزراقة أو الجمل. إذ أن هذا الطول نتيجة لمد العنق كى يصل كل منهما إلى الأعشاب. وكذلك الشأن فى الأفكار. فإنها بالعادة والتكرار تورث وتعود كما لو كانت غرائز. وهذا الحلم العام الذى لا يكاد يخلو منه طفل وهو السقوط برهان على أن خوف السقوط من الشجر، وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بألا يستسلموا للنوم العميق، هذا الحلم التحذيرى يدلنا ببقائه عندنا على أننا نرث الأفكار.

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الخميرة التى تفشت فى ذهنى وكانت علة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية. فإنه هو الذى كان يحفزنى من حيث أدرى أولا أدرى إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتقى الاجرام أو نعين أصول التربية أو نتقى الحرب أو نفكر فى الشئون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة.

وقد ألفت كتابى «العقل الباطن» فى ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد ولذلك لا يتجاوز موضوعه «العقل الباطن» أى الكامنة أو العقل الكامن ولكنى عندما ألفت كتابى الآخر «عقلى وعقلك» فى ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكلوجين وإلى شئ من الاستقلال الفكرى الذى لم أكن أجرؤ عليه فى ١٩٢٧.

والعالم المتمدن أسعد حالا وأهنأ فى عيشه بما حظى من التوجيه السيكلوجى الجديد على يد فرويد وتلاميذه، فان فرويد حرر الأطفال

من القسوة والخوف وأبرز القيمة الكبرى للحياة الطفلية الهانئة فى مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التى ربما تؤدى إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو انتحار أحدهما بسبب الاخطاء التى تعرضا لها أيام طفولتيهما من أحد الأبوين. كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج تنشأ من الكظم الجنسى. وقد عاد كثيرون ممن ذهب وجدانهم واضمحل تعقلهم لتغلب العقل الكامن عليهم، عادوا، من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسى.

وإنه لما يؤلم الذين انتفعوا بعبقرية هذا السيكولوجى العظيم أن يعرفوا أنه لم يستمع بشئ من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف الشيخوخة. فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع مدخره من المال بسبب التضخم فى النقد. وفى الحرب الكبرى الثانية طاردته النازية حتى فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته.

وتراثنا من فرويد هو «التحليل النفسى» وهو لا يمكن أن يموت وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات لأن صميم التحليل النفسى هو الإنتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان أى إلى الدراية. وحتى إتجاه السيكلوجية فى أيامنا إلى التجربة، وهو إتجاه عظيم القيمة جداً، فإن التحليل سيبقى مفتاحا للبشرية نفهم منه خباياها ونتعمق اسسها.

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين ١٨٥٦ ومات فى ١٩٤٠ منفيا مطارداً من وطنه فينا عاصمة النمسا. فان النازيين الذين استولوا على النمسا طاردوا اليهود وكان فرويد على الرغم من إلحاده معدودا بين اليهود.

وحفلت عواصم أوروبا فيما بين ١٩٠٠و ١٩٤٠ بالمناقشات الحامية بشأن التحليل النفسى كما حفلت بالإنشقاقات والخصومات مما دل على ان السيكلوجية الفرودية كانت ولا تزال فى طور المذاهب. ولا ينقص هذا من فضل فرويد.

ولما نزال هذا الطور لم نستقر. ولكن فرويد كان، كما قلت بمثابة الخميرة التى بعثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها وهذا هو أكبر فضله فى تربيتى.

سميث... أصل الحضارة

حين أتأمل الشخصيات العظيمة التى أثرت فى حياتى تغييراً أو توجيها وأبحث القوة الجذبية التى جذبتنى إليها أجد أنها ثلاثة طرز:

فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء حين يحيون أو يفكرون على القمة والذروة. فهم نيتشه فى جنونه المقدس يحيل حياته إلى مغامرة فلسفية ويدعونا إلى أن ننسلخ من رواسب الخرافات الماضية ونتولى بأنفسنا مصير مستقبلنا. وهم دستؤفسكى فى غلواء الحب الغامر للبشر والإحساس الدينى الذي تتذبذب به أوتار نفسه. وهم غاندى الذى يكافح امبراطورية سوداء بكلمات عذبة من الطهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند.

وأما الطراز الثانى فهو أولئك الذين أعطونى منهجاً.. فهم جيته الذى عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع فى الثقافة والزيادة من الاختبارات يشتغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون. وهم برنارد شو يجعل من أدبه كفاحا للظلم ولاستبداد والدناءة والقبح. وهم هـ. ج. ولز يرفع الصحافة إلى مقام الفلسفة فيدرس شئون العالم فى تدين بشرى جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله.

وأما الطراز الثالث فهم أولئك الذين أعطونى المعارف الخصبة أو الأفكار الحوامل. مثل فكرة التطور التى أحدثت لى مركبات ثقافية كأنها العقدة النفسية فى المريض تدأب فى تفرع. ولكن مع التسلل والتستر. ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتى جميعها استطلاعا دائماً. وهم فرويد الذى حملنى على دراسة العشرات من الكتب، وهم اليوث سميث الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى ما لا زال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم.

هؤلاء علمونى. أكسبونى بالحياة الغالية التى عاشوها على القمم إيحاءات كأنها صلوات بالقلب. أو أعطونى مبهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية. أو غرسوا فى ذهنى غراسا صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطع أنواراً تقشع ظلام الجهل.

التاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الأرض. وتاريخ مصر هو جغرافيتها. هو زراعتها التى أوجدت مجتمعاً مستقراً يثبت فى مكانه ثبات الزراعة فى الأرض.

وليس لأمة تاريخ ما لم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدى هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما. أما ما دام ليس هناك مؤسسات، كما هى الحال بين الاسكيماويين حول القطب الشمالى، فإنه لن يكون هناك تاريخ.

ثم ما دام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط، ولا يستطيع أن يزيد، فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقدارا من المال لإيجاد هذه

المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها.. ولذلك ليس عند الاسكيماويين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة. ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ.

وقد كان الإنسان قديما يعيش فى الغابات كما لا تزال القردة العليا. وكان يجمع طعامه ولا ينتجه. والفرق عظيم جداً بين الجمع وبين الانتاج.

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ولذلك بلغوا ٢٣٠٠ مليون فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان.

ولكن ليس الفرق بين الجمع والانتاج كميا فقط. لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الانسان البدائى الجوال وبين الإنسان المتمدن المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج.

وهنا قيمة اليوت سميث.

كان اليوت سميث أستاذا للتشريح فى كلية (مدرسة) قصر العينى قبل نحو أربعين أو خمسين سنة. وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على ابراهيم وجورجى صبحى وأحمد شفيق. وكانت له هواية إلى جنب الحرفة وكان، كما هو المألوف، يهتم بهوايته أكثر مما يهتم بحرفته. بل انتهى فى أخريات حياته إلى احتراف الهواية.

وهذه الهواية هى تاريخ مصر.

ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر. وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق الدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة.

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله. وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر وإنما لأن جغرافية مصر قد تفاعلت مع الانسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الانسان فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر.

وبهذه النظرية نقل اليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته، كما أن سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد. وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سبيل الكلمات والآثار والعادات الفرعونية.

ولهذا الرأى الجديد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا الرأى عن ثلاثمائة كتاب فى لغات مختلفة.

وقد كانت مؤلفات اليوت سميث انبلاجا ذهنيا قادنى إلى دراسات مختلفة كما أثمر مركبات ثقافية ما زالت فى اشتباكاتها. وقد ألفت كتابى:

«مصر أصل الحضارة» وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجديد للدنيا والبشر.

ولا يعدل هذه الغبطة عندى سوى اهتدائى إلى نظرية «التفسير الاقتصادى للتاريخ». وهى النظرية التى جعلت التاريخ علما يقاس

ويونز وليس روايات لذيذة أو مصادفات غير معللة. والحق أن نظرية الأصل المصرى للتاريخ البشرى كله تستند فى أساسها إلى العوامل الاقتصادية وأهمها هذا النيل الذى يروى الوادى فينتج الزرع.

وبؤرة البحث عند اليوت سميث تنحصر فى أن الانسان البدائى الذى كان يجمع الطعام جمعا من الغابات رأى فى مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى فى مواعيد معينة كل عام، حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضره النضرة التى كان يجد فيها طعاما كما كان يجد فيها صيدا لوفرة الحياة الحيوانية. ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية وهو أصل النبات. فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك. ويضبط الرى.. وهذه هى الهندسة الأولى.

وظهر عندئذ التخصص: مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون أوقات الزراعة. وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول وهنا تنشأ الحكومة التى يرأسها مهندس أو فلكى تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى ما لا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك. وهو يعيش كأنه ملك بل ملك يطاع. فإذا مات أصبح قبره معبدا. كما نرى فى عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويزورونها.

وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران، وإلى أوصاف تعين للزراعة. وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول. وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعية. وكل هؤلاء لا يزرعون. فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون. وهذه هى الحضارة.

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التى تستحيل إلى معابد. وهذا هو الدين البدائى.

ويجب ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هى جميعاً فرعونية. وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة فى التاريخ وعينوا أسماءها ولعله كانت فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد هذه الأسماء.

والزراعة هى الأساس الأول الذى نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور.

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم.

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى فى مصر. وبقى علينا أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم.

وقد استطاع اليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية أو بالأحرى يهتدى إليها عن طريق البحث فى انتقال الحضارة المصرية الأولى إلى أقطار العالم المختلفة.

فهو يوضح لنا أن غاية الإنسان البدائى أن يطيل عمره وأن يتقى الموت. ونحن نعرف من التحنيط أن المصرى القديم كان يعتقد فى سذاجة أنه ما دامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى مومياء متقنة فإن الحياة ستمتد بها فى العالم الآخر.

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار البعيدة. وهذه المواد كانت تقف الفساد في الجثة كما تكسبها عطراً

حسنا. وتنقل المصريين فى جلب هذه المواد نقل معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة. وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود. بل تبقى فى قطر ناء بين شعب غريب بدائى لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية وتعيش هناك إلى الأبد.

ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون فى روسيا بالقرب من جبال أورال. ولماذا عبد رب الشمس فى مكسيكا، كما عبد فى مصر، من حيث إحاطته بالثعبان. ولماذا حنطت الجثث فى أمريكا فى الطريقة المصرية. ولماذا وجدت الاهرام فى إيطاليا والسودان. ولماذا توجد فى اللغة الفنلندية كلمات فرعونية.. ولماذا ترجع أبجدية الخطوط فى جميع اللغات إلى الهيروغليفية المصرية. ولماذا يعم التقويم المصرى (الشهور والأيام) أوروبا بل العالم كله إلى الآن. ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية. بل لماذا تكون كلمة «الطوفان» الذى أغرق قوم نوح فرعونية. وأيضاً لماذا يوصف امبراطور اليابان بوصف الفراعنة ابن الشمس أي ابن رع. وأخيرا لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الإسم كما سبق أن ذكرتها وهى: قمح، بر، حنطة.

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسيذوروس وفى أوروبا تسمى المرأة باسم إيسيدورا. ومعنى الاسمين «عبد إيسيس» أى الربة إيسيس. وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة. وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع. وهو أى الثعبان لا يزال شارة الأسقف القبطى. وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن.

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضا فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوروبا، وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو السحر، الكهانة.

بل هناك إشارات صغيرة تدل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن. اعتبر قول الأوربيين «يوم أحمر أو ليلة حمراء» للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال. ونحن نقول فى مصر «ليلة حمراء» فى هذه المعانى أيضاً. والأصل هو عادة أسلافنا فى كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر. والعيد قصف ولهو.

هذه الثقافة المصرية القديمة التى تفشت فى العالم القديم لم يكن من الضرورى ان يكون القائمون بها مصريين لأن البعثة المصرية التى وصلت إلى الصين مثلا حيث تركت التمساح وجعلت تمثاله شعارا للصينيين، ليست هى التى ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التى تحيط هالة الثعبان. لأن هذه البعثة التى ذهبت إلى أمريكا كانت فى الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها با الثقافة المصرية.

واذكر البقرة هاتور المصرية واذكر تقديس البقرة فى الهند. واذكر أيضاً ملوك أفريقيا المتوحشين، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانو يتولون العرش رمزاً إلى الاستيلاء على العالم.

بل اذكر أيضاً دعوى الحق الإلهى لملوك أوروبا وهى الدعوى التى كافحتها الشعوب الديموقراطية. ولا تنس دعوى الألوهية عند الفراعنة. بل هناك ما يرجح أن معظم الأسر المالكة فى العالم يرجع إلى أصل فرعونى، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب

المواد والطيوب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون. فإذا لم ترجع البعثة صار هذا القرد ملكا على البقعة التى كانت تحتلها بعثته. حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى. الخ.

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار البعيدة. فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته، بالتحنيط بعد الموت، كان أيضا يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط، فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة. ذلك أنه كان يعتقد هذا العضو هو أصل الحياة. ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو الحياة من الحيا أى عضو التناسل فى الأنثى. ثم صار أيضا يجلب الذهب ويصوغه ودعا لجماله. ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب. فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة بل صار الذهب اكسير الحياة.

الذهب حجر الفلاسفة، الذهب أصل النقود. كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه أى الذهب يطيل العمر.

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب. بل ماذا أقول: إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى أى مصر أى الأرض السوداء. والكيمياء هى «العلم المصرى».

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر. وما زلنا فى مصر نشفى العين العليلة بتعليق حجر عليها أو فوقها.. وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع، وكلمة المرجان تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية.

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة وأطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط. كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية، فنفشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغابات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة، والزراعة أوجدت الحكومة، والدين، والفلك، والحساب، والهندسة، والبناء، والقانون.

نشأ الدين البدائى فى مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة. فاذا كان الميت عظيما صار الها بعد موته فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هى اخصاب الأرض وانتاج المحاصيل. وإلى عصر الإسكندر بقى هذا التفكير البدائى حتى إن كهنة مصر قد أحالوا الاسكندر إلى إله. وقرن أمون لا يزال منقوشاً على النقد الاغريقى الباقى من أيامه. ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة فى أوروبا إلى الآن.

ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصرى القديم. فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كى يكسبه رطوبة وعرقا كأن الحياة قد عادت إليه.

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة. فإن التمثال صنع أولا كى تلجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد. والرسوم التى تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد، وهو فى الأصل الضريح الذى احتاج أيضا إلى البنائين النحاتين.

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هى الضريح المصرى ومركباته السيكلوجية. ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا

يخلو منه معبد وهو يعين الجنة التى تحوى الشجر والثمر للبررة. كما يعين جهنم التى تحوى النار للفجرة. من هنا ظهر معنى العدل.

بل أن تحنيط الميت هو الأصل فى توبلة الطعام. لأن الملح والطيب والأفاوية التى كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل فى الطبخ كى يطيب الطعام من هنا كان القول العامى المألوف فى أيامنا أن الطعام «محنط» أى متوبل ..

ودراسة التاريخ المصرى القديم هى دراسة البدايات بداية الزراعة وبداية الصناعة. وبداية الحضارة والثقافة. وإن الغيبيات التى سادت الاذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الاسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى.

لم أكن أنبعث فى دراساتى للفراعنة بباعث وطنى. ولم يكن لفتوحات تحتمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لاشعال الوطنية. بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد للقصص والتراجم والحروب. وظنى أنه لولم يكن وراء دراسة الفراعنة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفاتى يزيد على المطالعة العابرة.

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وحملتنى على التفطن لأصول الحضارة ومن هنا اغراؤها القوى لاستمرار الدراسة. وإحساسى نحو الفراعنة هو لذلك بشرى وليس وطنيا.

---

(١) العادى كالقديم نسبة إلى قبيلة عاد.

ولقد قرأت «فجر الضمير» للمؤرخ الامريكى بريسند. وهو يشيد بالاخلاق العالية للمصريين. قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة بل أنه يقارن بين الاخلاق التى عاد إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الاخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط. ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقا. والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ولكن ليس العكس كذلك.

ولكنى أنا المصرى أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الاحساس.

ويجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فان الفضل فى ذلك يعد إلى النيل الذى قهر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانة ولانبساط الوادى وليس لذكاء فذ فى أسلافنا.

والحضارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها. إذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام. وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الارقام الهندية. ولولا الاغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن «المعارف» الدينية. أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة ولولا الامبراطورية الرومانية ثم الامبراطورية العربية لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجداننا البشرى الحاضر.

ومع أنى قد قرأت فى هذه النظرية وارتباطاتها نحو خمسين أو ستين كتابا فإنى مازلت فى اشتباكاتها أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم. أحس بأواصر الاجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية.

شو . رفيق حياتى

أحسن ما اقتنيت فى حياتى هو ذكرى برناردشو. فقد لقيته حين كانت لحيته لاتزال صهباء، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت ملفاته وإنى لأحس إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطو طاليس، واستمتعوا بحديثهما، وقرأوا وناقشوا مؤلفاتهما، ورأوا ضمائرهما الذهنية تتفشى فى حياتهم.

ولقد عرفته فى ١٩٠٩ ورافقته إلى سنيه الاخيرة إلى أن مات فى الرابعة والتسعين، هى أربع وتسعون سنة من الخلود. ولقد درست فلسفته فكان لى منها توجيه وإرشاد.

ولكنى لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التى، إلى مدى بعيد، تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره. أو أن حياته قد اندمغت فى أفكاره فعاش عيشاً فلسفياً. ولست أنكر النشوة الذهنية التى كنت أحدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشى واختيار أهدافى، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته.

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خامة، وجعل يعتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا.

وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته، وإنى ألتفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية أى كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوا منها بناء جميلا كما لو كانوا يرسمون صورة أوينحتون تمثالا أو يصفون بطلا فى قصة أو درامة.

وإنى لأذكر هنا روسو. وجيته، وغاندى، وفولتير، فإن كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم.

ولو أنه طلب إلى أن أؤلف فى ترجمة برناردشو وفلسفته كتابا يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلا أنهض به راضيا فى شهور ولكنى أجد صعوبة كبرى فى كتابة هذا الفصل عنه وفى صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار.

ويجب أن أبدأ بكتابة الأكبر وهو حياته. فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته:

«وإنما يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه»

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً علماً وأدباً وحكمة.

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحفة غالية. وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم فجعلها فى أمعائه، إذ رفض أن يجعل جسمه جبانة لجثث الحيوانات. والتزم الطعام النباتى وعاش ٩٤ عاماً سليما، فبرهن على أنه كان بصيرا بالغذاء الملائم للتعمير والصحة.

وقد كان التعمير بعض أهدافه كما كان بعض فلسفته. فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع، ويجب أن نعيش نحو ثلاثمائة سنة على سبيل العلاج الوقتى لمشكلاتنا الاجتماعية.

أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين، لأنه إذا طالت أعمارنا إهتممنا بالدنيا وأصلحناها. أما مادامت أعمارنا قصيرة فإننا نخطف اللذة والمتعة، ولا نبالى إصلاح هذه الدنيا، لأننا زائلون منها قريباً.

وقد أحب واشتعل فى نفسه لهب العشق فلم يطفئه ولكنه أيضاً لم يؤججه حتى لا يحترق به فقد عرف الممثلة الين ترى وكانت الروعة فى الجمال والحكمة فى العيش. وكانت تجمع إلى ذكاء العقل وذكاء الإحساس. فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهى تمثل، فإذا كان الصباح الثانى كتب إليها خطاباً يتسامى فيه بحبه ويبسط لها أعاجيب من إحساسه وذكائه فى تفطن وحماسة.

ولم يقابل أحدهما الآخر. وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك وهى جديرة بأن تكون دليلا للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم البشرى.

ولم يحظ بتعليم جامعى ولا مدرسى، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش فى عصرنا. ذلك أنه جعل سنى عمره الطويل جميعها سنى دراسة، ومؤلفاته هى مشكلات اجتماعية قد سلط عليها جهده وذكاءه، فدرسها واخرجها فى درامة كوميدية فنية، نقرأها أو نراها على المسرح، فنحس بالضمير الواخز والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها.

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات فأحاله إلى ميدان للأفكار. وكان ميداناً للتبذخ بوصف الحياة في القصور أوصلصلة السيوف أو الخيانة الزوجية الرخيصة، بإيجاد الشخص الثالث بين الزوجين. فجعله مكانا للتفطن في معاني الحب والبطولة. ومعايش الفقراء والمبئوسين ومعالجة الطموح الديني وتطور الانسان بعد آلاف السنين.

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التي درسها لأنها بعض تربيته.

عرف برناردشو الفقر والثراء، وعرف الكفاح في السياسة والفلسفة والعلم والأدب. وصرخ صرخة فولتير في مأساة دنشواي، كشف عن لؤم السياسة الإمبراطورية البريطانية في الحرب الكبرى الأولى. ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين نروج وبريطانيا، ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال. لم يعرف قط التدخين، وكان يقاطع الخمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات. وطاف حول الدنيا. وصادق العظيمين سدني ويب وزوجته. وكانا يرتفعان إلى مستواه في روح البر بالدنيا. وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية.

قبل أن ألقى برناردشو وجها لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته. فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد مالقيته في فولتير ونيتشه.

ولما التقيت به في الجمعية الفابية في لندن أحسست كأني أزاء أجمل رجل في العالم، فقد كان مديد القامة أحمر الشعر للحية

والرأس. وكان فى نغمات صوته صحلة خفيفة محببة وكانت كلماته القاسية للساسة الانجليز بشأن دنشواى قد جعلتنى أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشنوقين، لأنه بكى كما بكينا. ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته.

بل إن حبى له قد حملنى إلى أن أقتدى به فى التزام الطعام النباتى. وبقيت على ذلك سنة كدت أموت فى نهايتها من الهزال. ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتى وانما كان لجهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين.

كان برناردشو يعد نفسه صحفياً قبل كل شئ. وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحى المبدع والأديب الرصين، بل أحيانا العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين فى أخص نظرياتهم. ولكنه هو كان يجمل كل هذه الكفاءات بقوله أنها «صحفية» من حيث أنها جميعاً تتصل بالمشكلات العصرية.. والصحفى العالى يجب أن يرتفع فى تفسير هذه المشكلات ومعالجتها إلى المستوى الفلسفى. وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية.

ولد برناردشو فى ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة. كانت سنة ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الانجليز أرض وطننا. ولست أذكر هذين التاريخين اعتباطاً ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر فى وجدان الأوربيين.

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الانجليز حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها فى مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان.

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار فى ترك حزب الأحرار وإنشاء الجمعية الفابية لنشر الدعوة الاشتراكية. وكانت هذه الجمعية التى التحقت أنا بها، والتى أحالتنى من شرقى متوحش إلى أوربى متمدن، كانت السبب الأول لإيجاد حزب العمال الذى أسندت إليه رياسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة وكان برناردشو أحد مؤسسيها وأكبر داعية لنشر الاشتراكية الفابية أى التدريجية، التى تتسلل وتعالج دون أن تثور وتهدم.

وعاش برناردشو طوال عمره وهو يدعو إلى الإشتراكية وقد اتخذ الطرف اليسارى منها هذه السنين الأخيرة من عمره. ولكننا على الرغم من اننا نجد أن نظرياته ثورية، فإن خططه كانت عملية، وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث فى مسائل المجالس البلدية التى يجد فيها بؤرة العمل الاشتراكى.

وهو افلاطونى الذهن حين يتحدث عن العمال إذ يستصغر شأنهم ويقول بإيجاد صفوة معينة لمعالجة السياسة. وكأنه هنا فاشى يتحدث كما كان يتحدث موسولينى، ولكن فترات اليأس هذه قليلة عنده. وسرعان ما كان يفيق منها إلى الاعتماد على الشعب.

وهو بالطبع عدوّ الاستعمار وعدوّ الاستغلال ويقول بالتأميم ومؤلفاته، رسائل وكتباً عن الاشتراكية، عديدة وهى تتسم جميعها بأنها شعبية إيضاحية.

واختصاص برناردشو الأدبى هو التأليف المسرحى. وهو يضع لكل درامة أو كوميدية مقدمة قد تزيد أحياناً على مائة صفحة يوضح

فيها وجهته الفلسفية التى حملته على تأليف هذه المسرحية بل هو أحياناً يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيجازه على لسان أحد الممثلين. ومن هنا نقرأ الدرامة أو الكوميدية كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية.

وأسلوب برناردشو هو الأسلوب العصرى أى الأسلوب الديمقراطى.فهو يكتب للشعب بلغة الشعب. وهو لا يعرف التبذخ أو التظرف فضلا عن التبهرج. ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً فى الدين أو الفلسفة أو التاريخ ومرجعه أى مرد جذوره فى المسرح هو هنريك ابسن الذى جعل الدرامة الاوربية اجتماعية. وقد ألف برناردشو فى بداية حياته الأدبية كتباً فى الدفاع عن ابسن ولكن ابسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً إجتماعيا.

أما برناردشو فعكس ذلك إذ هو باحث اجتماعى قبل كل شئ وهو يستعمل المسرح وسيلة لشرح المشكلات الاجتماعية وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة.

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان والحب والحكومة والبغاء والفلسفة فى نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية ومعظم مسرحياته كوميديات قد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة.

وقد تجددت المسارح الاوربية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك ابسن، ودعمه برناردشو. فالدرامة الاوربية واقعية تجابه الحقائق وتعالج المشكلات وليست رومانتية خيالية تعيش فى الأحلام والأمانى.

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه. لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينى. وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين «أصل الأنواع» بثلاث سنوات ورأى واشتبك فى المعارك الثقافية حول هذا الموضوع ورأى الصدمة التى أحدثتها العقيدة الجديدة وهى أن الإنسان والحيوان من أصل احد.

وعندما نقرأ درامته الكبرى «الإنسان والسوبرمان» نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع كما هو إيمان دينى جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته إن ارتقاء الحضارة فى المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان وإنما الإرتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى الف سنة، ويزيد مخه إلى كيلو غرامين.. أن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته. وهذا هو السوبر مان الذى يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومى بحيث يكون منا كما نحن من القردة أعلى فى سلم التطور وأذكى ذهناً وأسلم غرائز.

وقد اصطدم برناردشو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد فيسمان. وفى السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذى دافع عن وراثة الصفات المكتسبة وبين القائلين بأنها لا تورث وأن الوسط لا يؤثر فى تغيير العناصر الوراثية، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو، أو قل إلى صف لا مارك قبيل مائتى سنة. وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هى الديانة البشرية التى تنأى عن الغيبيات، فإن درامته عن المسيحية «اندروكليس والأسد» تحملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان

فى بشرية المسيح وإن الله كائن فى الإنسان. ولكن إله برناردشو هو قوة الحياة التى تقف خلف التطور وتعمل للارتقاء وتسير مكافحة نحو النور والحب. وإلى هنا تقف «غيبياته» وهى غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد. وهى أقرب الأشياء إلى برجسون. وعندى أنها بعض رواسب القرن التاسع عشر التى علقت به هو وبرجسون كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج. وهو يقول: «إنسان بلا دين هو إنسان بلا شرف» وهذه عبارة سامية قد استنتجها من حياته. إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين أى بروح المسئولية أمام المجتمع بل ماذا أقول؟ أمام البشر والأحياء والتطور جميعها. ومن هذه العبارة أيضاً نفهم أن نظرته للدين اجتماعية أخلاقية.

ومهمة الفلسفة هى فى النهاية ايجاد النظريات والجاهل يحتقر النظريات ويزعم أنه عملى. ولكن ليس هناك من الأشياء العملية ما هو أفضل من النظرية الحسنة لأننا نقتصد بها، ونستغنى بها عن كثير من المجهود العابث.

وكلاهما برناردشو، وبول سارتر. يقول بحرية الفرد من حيث حقه فى أن يعمل كما يشاء ولكن الهدف يختلف بينهما. فإن برناردشو يبغى من هذه الحرية خير المجتمع من حيث أن حرية الإنسان تسير به نحو الخير إذا أدى الخير ونحو الهلاك إذا قدّم الشر. فالمجتمع كاسب من هذه الحرية. دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حريته لأنها في النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع. ولكن بول سارتر يقول فى خسة فلسفية ليس لها نظير «أنا وحدى» وعلى المجتمع السلام.

وبرناردشو مثل ولز، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة التطوّر. أجل إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو.

مات برناردشو وكان أجمل الأساطير فى حياتى. ولقد رافقته وتعلمت منه وحاولت أن أقتدى به فكنت أصل أحياناً وأقصر أحيانا ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدنين مستنيرين. وهذا هو ما حاولت ولكنى للأسف لم أنجح.

ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه فى المرمدة. وقد أحرقت زوجته فيها من قبل كما أحرق جثمانا صديقه ولز وزجته. وهذا الاحراق هو طهارة أخرى مارسها شو فى موته كما مارس النباتية فى حياته.

مما يستحق الملاحظة إن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبى المستعمر ومن الوطنى المستبد. فطالبت بالاستقلال والدستور. واعتقدت أن كل شئ من أمانيها قد تم. ولكن الأمم الأوربية فهمت النهضة أو النهضات المتوالية فيها على أنها قبل كل شئ تحرير الضمير البشرى، ففصلت الدين من الدولة، وكافحت التقاليد، وتمردت على سلطة البابا وألغتها واعتنقت العلوم. ومارست الفنون التى تعمل للتنوير الذهنى والسعادة البشرية وهذا مالم تفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول.

والناهضون فى أورباهم علماؤهم وأدباؤها وليسوا ساستها. هم غاليلو الذى خلف الكنيسة وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس. هم لوثر الذى انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس. هم دافنشى الذى

قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها. ثم داروين الذى رجع الانسان والحيوان إلى أصل واحد. هم رينان الذى قال ببشرية المسيح. هم ابسن الذى رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية.

هؤلاء هم الناهضون الذين غيروا اوربا، وبرناد شو واحد منهم.

فانه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر ومكافحة النفاق الاجتماعى. وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الخرافات والتقاليد والجبن الفكرى. وبعث الآمال فى مستقبل البشر على هذه الأرض. وصحيح أنه كافح قوات الظلام التى يمثلها الاستعمار والاستبداد، ولكنه كافح أيضاً، وبقوة أكبر، قوات الظلام التى تمثلها التقاليد وموروث العقائد الغيبية.ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضات الأوربية وعلمنا لتحرير ضميرنا لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية الصحافة. أو يسلط علينا بوليس الأفكار كى يعين لنا ما يجوز ومالا يجوز أن نفكر فيه ونكتب عنه.

أجل: إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضات الأوروبية.

* * *

ليس من الصدق أن أزعم أنى اقتديت ببرنارد شو. فانه رفع نفسه إلى مستوى عال من «العيش الساذج مع التفكير السامى» وعاونه على ذلك وسط متمدن لم أجد أنا مثله إلى يوم خلع فاروق فى مصر حيث يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله. والأصل فى هذه الحال المعكوسة هو الانجليز من ناحية والتقليد الشرقية من أخرى.

ولكنى حاولت. وكررت المحاولات ولم أتعب ولم أسأم. وخير ما

أخذت عن برنارد شو هو هذا الروح العلمى الذى يسود مؤلفاتى. فانى مثله على الذهن أدبى الوسيلة فلسفى الهدف، أمتاز بالتفكير العلمى والتعبير الأدبى. وهذا إلى أنه حبب إلىّ الاشتراكية ونقلها عندى من منطق العقل إلى عاطفة القلب. أجل: أنه جعلها ديانتى العملية. فليس البر عندى إحساناً وصدقة وإنما هو البرنامج الاشتراكى الذى يوفر لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والاقدام على المستقبل.

وهو، بعد داروين، الذى جعلنى استمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وموقفى البشرى. وقد كان هو يقول بالحاجة إلى «وزارة للتطور» تعمل لترقية السلالات البشرية. وهذا تفكير يعلو علوّاً عظيما على الصغائر التى يشتبك فيها الأدباء.

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته أحس السرور والغضب والأقدام والجهد والإدارة. أجل: أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلا لة فلسفية.

* * *

مات برنارد شو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته، وهى فقاقيع الحكمة، فكنا نضحك ونتعلم. ونحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه.

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى ١٩٥٠: إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة. وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة، وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة.

هذا ما قاله زعيم الفكاهة. وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر..

* * *

لما مات برنارد شو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق. وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوما كاملا. وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى، ولكنى مصر لم تفعل شيئا من هذا كأنها تعيش فى ذهول لا تقدر القيم الأدبية والاجتماعية فى العالم. والواقع أنها كذلك.ولو كانت هناك أمة مدينة لبرنارد شو لكانت مصر. فان الصفحات القليلة التى كتبها عن دانشوى تحمل من غلواء الذهن والعاطفة ما ينظمها فى عداد الأدب العالمى والبلاغة السامية. وستعيش هذه الصفحات وسيقرأها، كما قرأها، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون منها حق مصر وباطل بريطانيا.

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو. ولكانت هذه المؤلفات جديرة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية. فان تفكيرنا السياسى جامد، ونشاطنا الأدبى، إما رجعى يتعمق ظلام القرون الماضية، وإما سطحى يتبهرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات كأنه عبث الصبيان.ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكلوجى الاجتماعى الذى يتسم به أدب برنارد شو. بل ما أحوج الأديب والسياسى معاً إلى هذا التوجيه.

جون ديوى . . فيلسوف العلم

كنت أتحدث ذات مرة مع الدكتور كليلاند مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن مركب أوديب أو مركب النقص لا أدرى. فأنصت إلى ثم رفع عينيه فى وجهى يسأل فى خبث: هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع؟

وبهذا السؤال أفحمنى وأضحكنى معا.

فإنى أحسست أن السؤال أمريكى. هو سؤال ينبع من الوسط الأمريكى الذى يعتمد على العلم. ويحيا على أساس المعارف العلمية. وهو التجربة والاحصاء يقوم فى علم الاجتماع مقام التجربة فى الطبيعيات أو الكيمياء من العلوم المادية.

ويجب أن نسلم بأن الكثير من معارفنا السيكلوجية لم يرتفع إلى مقام العلم. وقصارى مانقول عن هذه المعارف أنها «فروض» ننتفع بها فى تفكيرنا. وأن هناك مايرجح صحتها لأننا، حين نعمل بها، نجد النتائج الحسنة.

ولكنها ليست علما. وإنما العلم هو ما قام به بافلوف الذى جرب التجارب فى الكلاب واستنتج النتائج. وهو أيضا تلك الحقائق التى

استطاع السيكلوجيون أن يستخرجوها بالاحصاء أى بالتجارب التى قاموا بها بين الطلبة، أو العمال أو الأزواج، أو المسجونين، أو نحوهم.

والعلم هو شئ جديد فى عصرنا. إذ ليس هو محض التفكير والاستنتاج وإنما هو التخيل أولا، ثم التجربة باليد، ثم التفسير بما يتلاءم مع النتائج من هذه للتجربة.

وشيوع الاسلوب العلمى فى أيامنا قد جعل الفلاسفة والأدباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وأدب ولذلك أصبحت الفلسفة «تجريبية» وصاحب هذا الرأى أو هذه الدعوة إلى اتخاذ الأسلوب العلمى فى الفلسفة هو جون ديوى الذى مات قبل سنتين والذى يعد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين. كما أنه مؤسس المدارس «الارتقائية» الجديدة التى دعا فيها إلى أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ أو الطالب بعد ذلك. وفلسفته عن التعليم تندمج فى فلسفته عن الحياة.

وأنا أحاول هنا أن أشرح فلسفته التى تأثرت بها والتى مازلت أسترشد بها وأعتمد على أسلوبها فى حياتى الذهنية.

وأبدأ بما أستطيع أن أسميه «مفتاح» التفكير الفلسفى عند ديوى. وهو أنه ليس فى هذا العالم، فى هذا الكون. شئ كائن. أى ثابت لا يتغير. لأن كل مافيه من ناس أو حيوان أو نبات أو جماد هو أشياء صائرة أى أنها فى تغير لاينقطع. أو بكلمة أخرى هى فى تطور.

نحن وكل شئ حولنا فى صيرورة نتغير..ولسنا فى كينونة ثابتة.

واعتقادى أن الذى غرس هذه الفكرة فى الأذهان العصرية هو داروين حين أثبت أن التطور هو الأصل والمبدأ فى عالمنا.

وما دام التغير أو التطور هو الأساس لوجودنا فإننا يجب لذلك أن نقول بالتجربة. أى التجربة فى الفلسفة. والتجربة فى الاجتماع. والتجربة فى التربية.

ذلك أن مجتمعنا ليس نهائيا إذ هو سيتطور. وما دام هذا شأنه فإننا يجب أن نتناوله بالتغيير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير.

هذا هو المفتاح الأول. أما المفتاح الثانى الذى يفتح لنا أبواب الفلسفة عند ديوى فهو أن الفصل بين الماديات والمعنويات الذى قال به أفلاطون ليس حقيقة وإنما هو وهم. فالمادة والروح، والجسم والعقل، والفكرة والمادة، كلها شئ واحد.

وهو يجبهنا بالقول بأننا لم نعرف قط عقلا بلا جسم ولا فكرة بلا مادة. أما المفتاح الثالث فهو التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء موقتة أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط . وهى ليست نهائية. ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة. ذلك لأن هذه الأشياء فى تطور. وقصارى مانستطيع أن نقوله عن المعارف البشرية أنها «آلة» أو «وسيلة» نفهم بها الأشياء. وغاية هذا الفهم غير النهائى إنما هى التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر.

لو كانت الأشياء ثابتة. ولو كان الكون ثابتاً، ولو كانت عقولنا ثابتة، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتاً نهائياً. ولكننا نحن جميعاً فى صيرورة، نصير ونتغير، ولذلك فإن هذا الفهم أيضا سيتغير ولا يمكن أن يكون نهائيا.

وما عندنا من فهم عن الكون والأشياء إنما هو صورة وقتية ننتفع بها ويجب أن ننتفع بها فى استخدام قوى الطبيعة لمصلحة الإنسان.

لا. ليست الغاية من الفلسفة أن نعرف أسرار الطبيعة. وإنما هى أن نستخدم قوى الطبيعة.

أما المفتاح الرابع فهو أن الذكاء البشرى إجتماعى.

فما عندنا من أفكار وآراء وعقائد، وعواطف، وفلسفات، إنما مرجعها جميعها إلى المجتمع الذى نعيش فيه. وكان يمكن ديوى هنا أن يقول إن اللغة اجتماعية وإنها الوسيلة للذكاء إذ لا يستطاع التفكير بلا لغة.

هذه هى الأسس لفلسفة ديوى التى يسميها «الآلية» أى أن الفلسفة يجب أن تكون آلة أو وسيلة للفهم، والتسلط بهذا الفهم، على الطبيعة.

وربما يكون من الحسن أن ألخص هذه الأسس الأربعة فيما يلى:

١ ـ أننا وكل شئ حولنا فى صيرورة ولسنا ثابتين على حال لانتغير.

٢ ـ كل مافى هذا الكون هو وحدة لاتنقسم. فليس هناك فرق بين الماديات والمعنويات ولا بين الحياة والمادة. ولا بين الجسم والعقل. بل ليس هناك عقل مستقل أو نفس مستقلة.

٣ ـ معارفنا عن الأشياء موقتة إذ هى فى تغير كما أن عقولنا التى نعرف بها فى تغير.

٤ ـ الذكاء البشرى اجتماعى أى أننا ننبعث بنظرياتنا وعقائدنا وأفكارنا بقوة الايحاء الإجتماعى الذى ينغرس فى نفوسنا من المجتمع الذى نعيش فيه.

* * *

هذا هو ديوى الفيلسوف، فما هو ديوى المربى؟

إن شهرته فى التربية أكبر من شهرته فى الفلسفة. وقد دعته تركيا وروسيا والصين كى ينظم لها وسائل التعليم وإليه تعزى هذه الأساليب الجديدة فى التعليم فى الولايات المتحدة نفسها.

التربية عند ديوى هى النمو الذهنى. ولكن لما كان الذهن، فى كل حال إجتماعياً فإن المدرسة يجب أن تكون إجتماعية. فإذا كان المجتمع الأمريكى مثلا يتنقل أفراده بالسيارة فإن التلميذ يجب أن يتعلم قيادة السيارات. وإذن يجب على المدرسة أن تخلق لتلاميذها اختبارات اجتماعية بحيث يختبرون ويحاولون حل المشكلات كما لو كانوا كباراً على اهتمام يقظ بكل مايحدث فى بلادهم بل فى الدنيا أيضا.

المدرسة عند ديوى هى جنين المجتمع.

وحين تنطوى المدرسة على نفسها وتعلم النظريات وتلقى الدروس التى لا علاقة لها بالمجتمع العصرى، حين تفعل ذلك، تعود بالضرر على تلاميذها، ولهذا يجب ألا تنقطع بتاتا عن الاتصال بالمجتمع.

وقيمة المدرسة عند ديوى تقاس بدرجة ما تخلفه فى التلميذ من الرغبة فى النمو. وهذا النمو هو فى النهاية تجدد ذاتى. وهو دءوب فى التوسع الذهنى بالاستطلاع والاختبار والدرس.

وكان أول مؤلفاته كتاب «المدرسة والمجتمع» فى ١٨٩٩، وإسم الكتاب يدل القارئ على الإتجاه الذى اتخذه ديوى فى فلسفته الإجتماعية وفى هذا الكتاب يصف النشاط الذهنى بأنه لايختلف من أى نشاط آخر نؤديه بعضلاتنا. أى أنه تفاعل مع الوسط. وهو أقرب الأشياء إلى الرؤية فإننا حين نرى شيئا بعيوننا لانحس أن الرؤية هى شئ داخلى فينا وإنما هى تفاعل بيننا وبين هذا الشئ. أى أنها حادث قد حدث بيننا وبين هذا الشئ. وكذلك الشأن فى التفكير فإننا لانفكر إلا لأننا قد التفتنا إلى شئ خارج عنا أو اهتممنا به.

وإذن ليست التربية ادخار المعارف وإنما هى غرس العادات الحسنة للتفكير حتى نصل إلى أحسن النتائج. وأحسن النتائج هى استخدام المعارف كما لو كانت آلات لخدمة البشر أى المجتمع.

والهدف من التربية هو ايجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع.

وليست الأخلاق عند ديوى شيئا مطلقاً. وليست هناك أخلاق مثلى دائمة. وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية. وما دامت غايتنا هى سعادة العيش فإذن يجب أن نجعل الملاءمة بين الفرد والمجتمع غاية التربية.

ثم ينتهى بأن الأخلاق المثلى فى مجتمع ما ليست سوى الأخلاق العلمية، كما أن خير المجتمعات هو المجتمع العلمى.

وبالطبع هنا شطط. فإن ما يزعمه ديوى من أن غاية التربية يجب أن تكون الملاءمة بين المجتمع والفرد قد يحملنا على القول بأن هذه

الملاءمة تقتضينا أن نعيش فيه حتى ولو كان ظالما. ورجل الثورة الذى يحتاج إليه رقى الأمم من وقت لآخر هو رجل لايتلاءم مع المجتمع. ومن هنا ثورته وهى فضيلته.

والواقع أن ديوى رأى قبل أن يموت شطط هذا الاندفاع فى التساوق مع المجتمع. فقد عقد مؤتمر أمريكى بلغ أعضاؤه نحو ٦٠٠ من خريجى الجامعات وأساتذتها. وعرض هذا الاقتراح على المؤتمرين:

أيهما أنفع؟ أن نعلم الطلبة اللغة الإغريقية أم نعلمهم فن الرقص؟

فكانت الأغلبية الساحقة فى جانب الرقص.

وذلك اعتقادا بأن المجتمع العصرى يحتاج الفرد فيه، كى يكون متلائماً معه، إلى الرقص. أما لغة الإغريق فيمكن الاستغناء عنها أو على الأقل تركها للمتخصصين.

لا ليست التربية الحقة أن نتلاءم على الدوام مع المجتمع.

والأغلب أن ديوى قد احتاج إلى الإكبار من شأن الاتصال بالمجتمع وإلى جعله الأساس للتربية كى يحمل المعلمين والمربين على أن يضعوا القيمة العملية فوق القيمة النظرية فى التربية. وعلى أن يجعلوا من المدرسة مجتمعا يتهيأ فيه التلميذ أو الطالب لأن يكون فرداً اجتماعياً له عادات اجتماعية ارتقائية وليس محض خزانة للمعارف الكيماوية والرياضية والتاريخية والجغرافية.

عضو نافع متطور فى مجتمع ارتقائى متطور.

وقد نجح فى هذا. فإن «المدارس الارتقائية» فى الولايات المتحدة هى ثمرة فلسفته هذه. وهى جنات للصبيان والشبان يجدون فيها سعادة كان أسلافهم يحرمونها بالدءوب فى دراسة واختزان المعارف.

أعتقد أننى انتفعت كثيراً، فى تربيتى الذهنية، بجون ديوى.

وأول انتفاعى به أنه ألح على مراراً وتكرراً بضرورة الالتزام للإسلوب العلمى فى المشكلات الاجتماعية، وبالطبع كلنا يعرف قيمة الأسلوب العلمى ولكن هناك من الأفكار مانحتاج إلى أن نكرر القول فيه ونبدى ونعيد حتى يصير عادة ذهنية ثابتة وليس فكرة عابرة أو طارئة.

* * *

«هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع؟»

هذا السؤال الأمريكى الذى سألنيه كليلاند هو ما يسأله جون ديوى فى كل مشكلة. ولذلك هو لايفتأ ينشد التجربة التى تصحح منطق الفكر المجرد وتوضح ما لعله قد أهمله هذا المنطق.

التجربة فى كل شئ. فى الفلسفة، وفى الأدب، وفى الموسيقا، وفى الأغانى، وفى الاجتماع...

ولم لا؟

أذكر أنه عندما عمدت إحدى الوزارات الماضية إلى إلغاء البغاء بالأحكام العرفية أنى طلبت التجربة. فقلت أننا نستطيع أن نلغى البغاء الرسمى فى القاهرة وندعه فى الاسكندرية مدة عام. ثم نقوم

بتحقيقات بشأن الصحة الجسمية والنفسية بين أفرقاء مختلفين من الشبان آخر هذا العام، فاذا ثبت لنا أن الإلغاء فى القاهرة قد نقص الأمراض الزهرية. ولم يؤد إلى تفشى الأمراض النفسية وتفشى الشذوذات التى تنشأ من التوترات الجنسية، فإننا نعمم الإلغاء فى القطر كله، أما إذا ثبت العكس فإننا نعيد البغاء الرسمى.

هذه تجربة اجتماعية نحاول بها حل مشكلة معينة فى مجتمعنا حلا علميا يقوم على الاحصاءات.

وقل مثل ذلك فى الفلسفة التى تنشد صلاح العيش وتحقق السعادة للإنسان بل كذلك فى الفن الذى ينشد سعادة النفس وجمال الذهن وجلال العاطفة نجرب ألحاننا وماتحدث فى نفوسنا من إحساسات الشجاعة والشهامة أو الخسة والدعارة. ونجرب أشعار شوقى أو حافظ أو أبى نواس أو المعرى، بحيث نجعل أحد الفصول فى الأقسام الثانوية يدرس واحداً من هؤلاء ويستغرق فى أحساساته وقوافيه ثم نحقق آخر العام أثر هذا فى النفس والذهن والعاطفة ونخرج بالنتيجة التى توضح لنا ما نجهله.

بل كذلك التجربة فى أغانينا وموسيقانا بالمقارنة إلى الأغانى والموسيقا الأوربية أيتهما تبعث على الانتعاش الروحى والصحة النفسية والاحساس الفنى؟

أجل: ليست التجربة فى الكيمياء والطبيعيات وما إليها فقط. إذ هى يجب أن تشمل حياتنا الاجتماعية كلها. نجرب فى نظام الدولة، ونجرب فى نظام المجتمع، ونجرب فى طرق الزواج والطلاق، ونجرب

فى طرق التعليم وفى معايش الناس حين يمارسون الزراعة أو الصناعة.

هذه واحدة مما تعلمت من جون ديوى. وأخرى هى أن المجتمع هو الذى يربينا. ولذلك هو يقول أن المجتمع كان يمكن أن يكون هو المربى الوحيد لنا بلا مدارس. ولكننا نحتاج إلى المدرسة كى تجمع الاختبارات المختلفة التى تزيد قيمتها على غيرها فتلتفت إليها دون غيرها مما هو أقل خطورة. وبذلك نستطيع أن نكسب الطالب من هذه الاختبارات المختاره فى عام أكثر مما يستطيع أن يكسب من المجتمع فى سنين حين ينتظر طروء هذه الاختبارات عليه جزافا.

التربية للمجتمع والمجتمع للتربية وإذا انفصلت المدرسة عن المجتمع، وإذا انفصل إنسان، رجلا كان أو امرأة، عن المجتمع، فهو، بقدر هذا الإنفصال، تنقص أو تنعدم تربيته.

* * *

وقصة صغيرة أخيرة أرويها عن جون ديوى لأنها تكاد تلخص لنا إيماءة حياته وهدف فلسفته. فإن هذا الرجل كان يحيا كى ينشد الاختبارات فى هذه الدنيا، وهو يختبركى يفلسف ويستقطر الحكمة والسعادة من اختباراته.

ولذلك نجده قبل نحو ست سنوات يقصد إلى قرية أو مدينة صغيرة يعيش فيها آخر أيامه بعيداً عن صخب العواصم وهرولتها. وهو يحب، حتى فى سنى شيخوخته فى هذا المعتكف أن يؤدى عملا أو خدمة للمجتمع فهو يربى البقر ويستدر اللبن. فاذا جاءت طلائع

الصباح حمل اللبن على عربته وهرع إلى البيوت يوزعه بالثمن المجزى. وهو يقص علينا فى فكاهة أن إحدى السيدات التى فتحت له الباب كى تتسلم منه زجاجة اللبن طلبت منه ألا يقرع هذا الباب الخلفى الذى يؤدى إلى المطبخ.

فيلسوف لا غش فيه...

رقم الإيداع ٥١٧٥ / ٩٥
I. S. B. N 977-01-4426-6



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

